Twitter: @alqareah
11.4.2015

الصادق النيهوم

تحية طيبة وبعد

@ketab_n

تالة
للطباعة والنشر

تحية طيبة وبعد

الصادق النيهوم

نالة
للطباعة والنشر

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

تحية طيبة وبعد

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

تحية طيبة وبعد

الصادق النيهوم

دار نالة للطباعة والنشر

طرابلس

©حقوق النشر محفوظة

التوزيع الحصري خارج الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى

مؤسسة الانتشار العربي

ص. ب. 13/5752 ر. ب. 1103 2070

بيروت – لبنان

Email: arabdiffusion@hotmail.com

الطبعة الثانية 2001

Twitter: @alqareah

المحتويات

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

كلمة الناشر

ما الذي يدعونا إلى تجميع دراسات ومقالات قديمة لأحد الكتاب، ونشرها مرة أخرى؟..

سؤال واجهناه عند بداية التفكير في نشر هذا الكتاب، وقد يتبادر إلى ذهن القارىء أيضاً عندما يتصفح محتوياته. وقد جاءت الإجابة حاسمة في نقاط ثلاث:

الأولى: أن الصادق النيهوم ليس أحد الكتاب.. بل هو كاتب مفكر، تعتز به حياتنا الفكرية والأدبية، وتعتبره الأمل..

الثانية: أن دراسات ومقالات هذا الكاتب لم تكن صدى لحس صحفي، أو تجربة متغيرة، ولكنها كانت في الواقع قد عبرت عن خط فكري ملتزم تجاه معركة محددة. ولهذا فإن آخر ما كتبه الصادق ليس سوى استكمالاً لما بدأ به.. لقد كان يكتب في موضوع واحد طيلة سبع سنوات..

الثالثة: أن معركة هذا الكاتب هي هنا.. وما دامت هنا.. فهي لم تنته بعد، وقد يبدو أنها تبدأ هذه الأيام بدايتها الحقيقية..

ومن هنا.. فإن السؤال الذي يحيرنا الآن هو:

كيف تأخرنا حتى هذا الوقت في نشر هذا الكتاب؟.

الناشر

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

تحية طيبة وبعد!

«.. ويقال إن الحاج الزروق الذي يحب العيال الذكور حباً جماً ويكره البنات، كان يملك في حوزته كلبة وامرأة. فأنجبت كلبته ذات مرة سبعة ذكور وأنجبت امرأته في اليوم التالي بنتاً واحدة فوقف عند باب الدار وقال لامرأته معيراً:

- يا ريتني.. يا ريتني تزوجت الكلبة..!»

بكت ناتاشيا تحت وطأة الفودكا..

مد صاحب الحانة عنقه وشرع يتفحصنا بريبة.. قال له أحد الرواد بلغة روسية رديئة:

- هذا درويش صائع من الشرق الأوسط وقد سكر لكي لا يدفع الحساب..

1

.. لكن امرأة الحاج الزروق - أيها السادة - مرضت في اليوم التالي ولزمت الفراش ولم تكنس البيت بالعرجون ولم تغسل القصعة ولم تعد وجبة العشاء، فقال لها الحاج الزروق مبدياً ضيقه:

Twitter: @alqareah

ـ هيا يا وليه بلا دلال خير لك..

ماتت السيدة خلال الليل. فقال لها الحاج الزروق مغلوباً على أمره:

ـ هذا الدلال يا خويا..

ثم لبس طاقيته الحمراء وكاطه الاسكندراني وذهب إلى البلدية لكي يحصل لها على ترخيص بالدفن..

طلبوا منه نصف جنيه رسوم الدمغة وخمسة جنيهات ثمن القبر.. وطلبوا منه أيضاً أن يذكر لهم أسباب الوفاة.

ـ شي يا خويا.. قال الحاج الزروق مبدياً ضيقه من الروتين والغلاء:

ـ كحة بسيطة.. لكن انتوا تعرفوا اطروح الصبايا. بالكحة ماتت امرأة الحاج الزروق ودفنها بعد صلاة العصر.. وكتب على شاهد القبر:

ـ ابتعدوا.. حريم..

2

بكت ناتاشيا تحت وطأة الفودكا..

أعلن صاحب الحانة بصبر نافذ أن جملة الحساب قد بلغت ثمانية روبلات وأطلع هراوته من وراء البار..

تخلى الرواد عن نشرة الأنباء وشرعوا يراقبونني بفضول، كنت أريد أن أدفع الحساب لكن الحاج الزروق دعاني لقبول العركة مع صاحب الحانة.

قال الحاج الزروق ناصحاً:

Twitter: @alqareah

ـ عطيه طريحه وبعدين عطيه افلوسه.. هكي انديروا في بلادنا..

رأيت وجهه الطيب في أضواء المصابيح الزيتية، رأيت خليفة الله في الأرض.. مددت له يدي عبر جدار التبغ والدوار ورحبت به في حانة «ياشين كازلوف» المواطن في جمهورية قوقازيا، وقدمته إلى الرواد:

ـ أيها السادة.. تحية طيبة وبعد.. فهذا الحاج الزروق آكل لحوم البقر وخليفة الله في الأرض الذي كان يملك في حوزته بقرة وكلبة، فأنجبت كلبته سبعة ذكور وأنجبت بقرته عجلاً واحداً، فقال لبقرته معيراً:

ـ واحد بس يا كلبة!..

هذا الذي دفن امرأته بعد صلاة العصر وأغلق باب القبر بالمفتاح!..

3

.. وجملة الحساب بلغت عشرة روبلات، وصاحب الحانة يحك رأسه متردداً في الاتصال بالشرطة.. والزبون القوقازي الذي كان يلعب الشطرنج على المائدة المجاورة تخلى عن الملك في ساعة الضيق وشرع يقرص ناتاشيا في ظهرها.. كان يعتقد أنها معروضة للبيع مقابل عشرة روبلات..

أعني دقة ملاحظة وبساطة في التنفيذ.

4

فقد قيل أيضاً أن الحاج الزروق المعروف بدقة الملاحظة رأى أن امرأته وبقرته تأكلان من شوال شعير واحد لكن المرأة تنجب بناتاً

Twitter: @alqareah

والبقرة تلد عجولاً فحار في أمره وذهب إلى إمام الجامع طالباً النصح.

قال الإمام الطيب القلب:

ـ ساهلة.. اربط الولية في السقيفة وشيل البقرة فوق السدة..

عمل الحاج الزروق بالنصيحة، لكن امرأته أنجبت له بنتاً على أي حال!..

لا.. لم يكن ثمة فائدة من إمام الجامع..

5

فاغرس خنجرك هنا.. لن تجد له مكاناً أفضل من قلب خليفة الله في الأرض، أعطني سمومك المقدسة أحملها لك ريثما تؤدي فريضة الحج.. دعني فقط أغمس إصبعي في ضوء قمركم وأكتب على هذا القبر بكائية لمن مات مرتين..

فهنا ينام من لم ينم..

هنا تستريح أمي لأول مرة في حياتها.

6

وفي عيني ناتاشيا تسبح أضواء قناديل الزيت وتنهض شوارعنا وروائح البخور في ليالي الجمعة ويتوكأ إمام المحلة على عصاه الخيزران ويرفع قارىء البغدادي صوته بالصلاة على النبي وينبت الشوق ريشة وريشتين..

تحية طيبة وبعد..

فقد قيل إن الملك المحبوب ـ حفظه الله ـ بنى قصراً في الهواء فقامت الصحف وخصيان البلاط بحملة واسعة لكي يتبرع الشعب بالسجاد!..

Twitter: @alqareah

«تبرع للملك بمح كبدك».. كتب محرر الشؤون القومية مساهماً في حملة التوعية لكن الرقابة صادرت مقاله بحجة أن الملك يستحق الكبد كلها.

7

لأن الدنيا مقامات..

واحد في الطابق الأول وواحد في الطابق الثاني وبينهما برذعة، ولأن الحاج الزروق إذا ركب فوق ظهر حماره يقول له: «اش يا يهودي»..

وإذا ركب اليهودي فوق ظهره يقول له:

«انزل يا حمار»

ولأن.. ..

8

فأنا مكمم الفم في حانة تحت الأرض..

مثل كلبك الواعر، مثل قاطع الطريق مكمم الفم والشرطي يفتش جيوبي بحثاً عن ثمن الفودكا، والليل تعب من مطاردة النهار فقرر أن ينتظره في حانة المواطن «ياشين كازلوف».

منذ ألف ليلة أنا أنتظر النهار، فهل تعرف ماذا حدث بعد ألف ليلة؟.. جاءت ليلة أخرى.. وجاء شهريار حاملاً سيفه..

بلغني أيها الملك السعيد ذو الرأي الرشيد، والحكم السديد، أن رجلاً طيب القلب لم يسرق في حياته قط، أغراه الشيطان ذات مرة وسرق بيضة.

ففقست البيضة شرطياً.. وقاضياً.. وسيافاً.. هرب الرجل الطيب القلب على وجهه وجاء إلى حانة المواطن «ياشين كازلوف»

Twitter: @alqareah

لكي يغرق همومه في الشراب.. فتح زجاجة الفودكا فطلع له..

لا تحدس شيئاً يا مولاي، لا تجهد رأسك المحبوب في تخمين ما حدث، فأنت لا تملك فرصة واحدة، وأنا لا أستطيع أن أقول لك شيئاً لأنني مثل كلبك المحبوب مكمم الفم.. مثل..

فقد زعموا أن إمام الجامع في حارة السقايين كان يفضل النوم ويكره أن يستيقظ لصلاة الفجر لكن ديكه ظل يوقظه كل يوم.. أعني حتى في عز الشتاء..

زعل الإمام من الديك وقطع لسانه، فيقال إنه حتى الآن لم يطلع الفجر، ولم يستيقظ أهالي حارة السقايين.

9

فليبارك الله في خصيان القصر..

دراويش التكية..

بهائم المذبح..

باعة أجسادهم..

مرضى الجهل والتيفوس..

الذين تعهدوا بصلاة الفجر عراة في حارة السقايين..

وغطوا عين الشمس بالغربال..

غطوا عارهم بورقة توت..

نسوا أن الشهر يمضي ويمضي وراءه شهر..

ويحل الشتاء في فبراير..

وتخسر الغنم أصوافها..

وينهق الحمار وراء الخطوط البعيدة..

Twitter: @alqareah

فاعطني مهلة شهر لكي أدفع الحساب.. ودعني أكتب لك:
تحية طيبة وبعد..

10

زعموا أن الحاج الزروق الذي لم يكن يدخل إلى بيته حتى الذبان الذكر عاد ذات مرة بعد صلاة العصر ووجد أن امرأته قد سقطت فوق الخرارة وخبطها ملك الجن بنفسه، أعني وجد في بيتهم رجلاً..

ـ باهي.. قال الحاج الزروق لملك الجن مهدداً، ثم شرع ينط بكل ثقله فوق الخرارة..

ـ كنك؟.. تساءل ملك الجن مدهوشاً.

قال الحاج الزروق مهدداً:

ـ كني؟!.. بيش تخبطني امرتك يا جحش..

فنصيحة لله، لا تلعب بالنار، ولا تجرب حظك في حارة السقايين وقل للأعور أعور في عينه، وقل للأطرش أطرش في أذنه.. وإذا عضك كلب فعضه، لأنه لن يصيبك إلا ما كتب الله تحت طاقيتك الحمراء ولكن إذا كتب الله هناك شيئاً، أعني مثل أن تأكل العنب في عز الخريف فسوف تحلب من ضرع عنزتك النبيذ.. فلا تشغل بالك بشيء لأن اليوم خمر وغداً خمر أيضاً ريثما يأتي الله بالفرج..

وقلت لك أن شحاذاً صادف ناسكاً ذائع الصيت يذرع الصحراء على حماره قاصداً مكة المكرمة فقال له (أعطني مما أعطاك الله)..

Twitter: @alqareah

ـ (تفضل).. قال الناسك الطيب القلب (إن الله قد أعطاني خزائن السموات والأرض فماذا تريد منها؟).

ـ (هذا الحمار) قال الشحاذ ملتزماً جانب القناعة، لأنه تعلم من معلم الفقراء أن حماراً في اليد خير من فيل فوق الشجرة.. ولأن الناسك يحتاج فقط أن يصفر فيطلع له ملك الجن مجهزاً ببرذعته..

11

فالأرض لك وللشحاذين..

والسماء للطيور.. ليس ثمة نزاع على الحدود في عالم الله، وإذا كان الملك ـ أحياناً ـ يتعدى حدود الله ويبني لنفسه قصراً في الهواء فإن ذلك لا يعني بالطبع أن صاحب الجلالة يزمع أن يسكن فيه بنفسه حقاً بل يعني فقط أنه سيبيعه لأهالي منطقة السبالة وسوق الجمعة.

بدرهم.. بنصف درهم.. بقروض طويلة الأجل، فالملك يبني من أجل الشعب ولا تهمه النقود ما دام الشعب يعرف أن النقود بالذات مجرد أوراق عديمة القيمة بدون رأس الملك.

والشعب يعرف.. حتى الحاج الزروق ـ الذي يبدو من الخارج بمثابة درويش حسن النية ـ رفض ذات مرة أن يبيع لي ربطة الفجل عندما أعطيته قرشاً ممسوحاً، وقال لي مبدياً شكوكه:

ـ علاش يا خويا، وين رأس الملك؟!..

أعطيته قرشاً آخر فقبله مني وأعطاني ربطة فجل لا تحمل رأس الملك!.. كان رجلاً غشاشاً عليه رحمة الله.

Twitter: @alqareah

12

والشعب يعرف من أين تؤكل الكتف..

ويعرف أن القرش الأبيض لا يمشي في السوق بدون طاقية الملك الحمراء، ويدخره لوقت الحاجة ويصره على كبده ويكدح وراءه طوال النهار.. أعني طوال الليل والنهار يكدح الشعب وراء طاقية الملك لأنها رأس الملك وثمن تذكرة الحافلة وميزانية العام القادم ورغيف الخبز للعيال ولأنها ـ أحياناً ـ القرش الأبيض الذي ينفع في اليوم الأسود، وأحياناً ـ أعني في مملكة الزنوج ـ القرش الأسود الذي ينفع في اليوم الأبيض.

وأحياناً..

فأنا نسيت أن أقول لك أن الملك اكتفى بوضع رأسه على وجه القرش ونسي أن يضع حذاءه الملكي على الوجه الآخر فشرع الناس يسحبون القرعة قائلين (تبي الرأس والا الذيل)!..

أيها السادة، تحية طيبة وبعد.. فإن الملك لا يملك ذيلاً..

13

وحاصل الجمع أن واحداً زائداً واحد لا يساوي شيئاً بدون الملك وأن رأس صاحب الجلالة رأس مال الشعب وأن بناء القصور في الهواء ـ مثل بيع الريح للمراكب ـ ليس دائماً تجارة خاسرة.. لأن الشعب يحتاج إلى الأحلام المعسولة كما يحتاج إلى الخبز وأمواس الحلاقة، ولأن أبناء الحرام سيبيعون له المخدرات إذا لم يبعه الملك خطبة العرش..

وطريق السلامة أن يصدر في كل مملكة قانون بتحريم بيع الحشيش والاكتفاء بالجريدة الصباحية..

Twitter: @alqareah

14

فقد زعموا..

أعني في بلدة نائية أن شحاذاً جائعاً وجد شاعر البلاط يتنزه على الشاطىء مستوحياً البحر في قصيدة جديدة فقال له:

ـ أعطني مما أعطاك الله..

قال شاعر البلاط:

ـ سأعطيك بيتاً من الشعر..

قال الشحاذ (تحت وطأة جوعه):

ـ باهي.. لكن ما تنساش المطبخ..

فنسيه بالطبع لأنه ليس من الحكمة أن تطلب من شاعر البلاط ما أعطاه الله وتترك له ما أعطاه الملك..

وليس من الحكمة أن تدخن الجريدة الصباحية على الريق..

15

وحاصل الجمع أن الخبز خير من العلاج، وأن الله يريدك أن تضع يدك تحت يد سيدك لكي تتلقى نعمته وتشكره عليها بعد صلاة الجمعة.. حتى العقرب ـ هل تعرف العقرب؟ ـ مكتوب على جبينها أن تبني معبداً لكي تشكر الله على نعمة السم.

وحاصل الجمع أن رأس الملك رأس مال الرعية، وأن المرء يبني قصره في الهواء لكنه دائماً يقبض ثمنه على الأرض وأن أمنية الحاج الزروق أن يبارك الله في قطته على حساب الفئران وأمنية قطة الحاج الزروق أن يبارك الله في الفئران على حساب شعيره.. ولا شيء يحتاج إلى أن يأتي من السماء..

لا شيء سوى قصور الملك وبعض خصيانه المقربين..

Twitter: @alqareah

16

والحزن نوع من عصير البلح يباع في حانة المواطن (ياشين كازلوف) مقابل نصف روبل للزجاجة الواحدة، والليل لا يملك تأشيرة خروج وعليه أن ينتظر هنا أسبوعاً آخر والسيدة ناتاشيا ـ ملكة الغجر ـ سرقت سجائري وأعطتها لعشيقها القوقازي لكي يدخنها في يوم الاستقلال وقالت له بلغة روسية رديئة:

ـ هذه سجائر المسلمين.. خذها غنيمة من عند الله.

اللهم!..

اللهم اجعل أموالهم وسجائرهم ونساءهم غنيمة للمسلمين واجعل ناتاشيا ـ ملكة الغجر ـ تقع في حصة الحاج الزروق، ودعها تجرب أن تسرق سجائره ذات مرة وتعطيها لعشيقها القوقازي لكي يدخنها في عيد الاستقلال..

فأنا صليت المغرب وقرأت دلائل الخيرات وغسلت يدي بماء النار لكي أرفعهما إليك من أجل دعوة واحدة في كلمتين من شأنها أن تطهر عالمك من عاره فلا يعود أحد يخوض في اللغو أو يصعد إلى سمواتك على أكتاف امرأته..

أو يبيع الماء في حارة السقايين!..

17

فالصوفي مات في أضواء التجلي وعجوزه تخيط له الكفن على فتيلة الغاز، والحاج الزروق تزوج ذات مرة من طنطا فتاة مثل العسل اسمها (نواره) وأحضرها إلى بنغازي في البيت المقابل للكوشة. لكن الفتاة كانت تدعو الحاج الزروق باسم (زوزو) وكان ذلك يضايقه كثيراً.

Twitter: @alqareah

كل يوم تسأله نواره: أنت لسه بتحبني يا زوزو؟..

وكل يوم يقول الحاج الزروق مبدياً ضيقه:

ـ آه.. ما زلت انحبك يا حمارة..

إلى أن حانت ساعة الصفر ونعق غراب البين على البيت المقابل للكوشة ومات الحاج الزروق ودفنوا معه نواره.

18

رأس الخيط أن الدنيا مقامات.. واحد على الأرض وواحد في الغرفة وبينهما شكيمة، وأن ما يفعله الأعمى يجده في عكازه.. فلا شيء يذهب جفاء سوى زبد البحر والجريدة الصباحية.. أما الباقي فإنه مرتب بموجب مرسوم.. الملك فوق ظهر الحاج الزروق، والحاج الزروق فوق ظهر عجوزه، والقافلة تسير على الأرض وتنال رزقها من السماء..

كل الرزق من السماء.. أعني من قصر الملك الذي بناه في الهواء وفرشه له خصيانه بالسجاد وأوراق الصحف. كل أحزان الأرض تأتي من فوق.. كل دمعة تذرفها حمير القافلة قطرة مطر سماوية.. كل عار الدنيا أنها تفضل البضائع المستوردة.. كل عزاء هذا المقتول انه سمع من قاتله أن موس الجيليت ليس مصنوعاً في اليابان.

فلماذا؟..

أعني من أجل حمير القافلة ورغيف الخبز للعيال لماذا لا يترك الملك السماء للطيور ودخان المطبخ؟.

19

فما أعذب رائحة الخبز في أنوف الجياع، وما أعذب الأطفال

Twitter: @alqareah

الشبعانين، وما أبهى الأرض من سارية البحار التائه.. وما أسوأ أن تموت مثل القمر ضائعاً في الفضاء ومشنوقاً بلا حبل..

لأنه موت بلا جنازة ولا صلاة ولا اله إلا الله.. موت العطشان على ضفة السراب.. موت المواطن الزنجي (كوموتو كومبا) الذي كان يمشي على حافة النهر فأكل التمساح ظله.. ..

20

وأنا أقول للحاج الزروق (هذا ثور).. فيقول لي (باهي احلبه) وينسى أن يحضر معه جردل الحليب.

.. قلت لك أن الأب (اليكسي زخاروف) كان يصف الجنة لرواد الكنيسة في قداس يوم الأحد حتى أسال لعاب الرواد وأغراهم بفعل الخير.. كان يعرف من أين تؤكل الكتف ويعرف الجنة شبراً شبراً.. ولولا أنه كان يقرأ من الإنجيل لاعتقدت أنه وكيل سياحي.. لكن الأب اليكسي زخاروف كان يقرأ من الإنجيل..

21

فاعلم - وقل لبقية المواطنين - أن نص المية خمسين، وأن الصمت من ذهب لكن بياع الخبز في سوق الخضارة لن يعطيك رغيفاً واحداً مقابل عشر سنوات من الصمت. إنها مشكلة الحكماء الذين يطلقون الأمثال يميناً وشمالاً من أبراجهم العاجية وينسون أن أهل الأرض ينالون رزقهم من سوق الخضارة الكائن في بنغازي.

مشكلة أمثال..

فقد قيل أيضاً أن الحاج الزروق الذي سمع من والده المثل

Twitter: @alqareah

القائل (اضرب القطوس تخاف العروس) تزوج ذات مرة وأحضر قطة معه في ليلة الدخلة وجلس يضربها فوق السدة.

- ليش؟..

سألته العروس من باب الفضول.

قال الحاج الزروق باحثاً عن عذر عاجل: شي والله.. بس ألقيتها اتباوع.

فنصيحة لله لا تلعب بالأمثال، ولا تتزوج قبل أن تبلغ سن العقل، وإذا هداك الله إلى الصلاة فلا تدع الشيطان يهديك إلى محفظة الفقي.. إنني أنصحك عن تجربة.

22

فأنا سرقت محفظة الأب (اليكسي زخاروف) ذات مرة.. وقد فعلت ذلك تحت إغراء الشيطان في الدرجة الأولى.. وتحت وطأة الجوع في الدرجة الثانية وتسللت إلى الكنيسة خلال الليل وأخذت المحفظة من جيب مسوحه الأسود الذي يعلقه عادة فوق أيقونة القديس أوجستين.. فماذا تعتقد أنني وجدت في محفظة الأب (اليكسي زخاروف)؟.

أيقونة أخرى للقديس أوجستين وورقة من الإصحاح الثاني وخريطة ملونة لجهنم تشير إلى مكان اللصوص في الطابق الرابع ورسالة تهديد كتبها الأب (اليكسي زخاروف) بخط يده الرديء إلى أي لص يسرق محفظته وقال فيها متوعداً:

- لن يدخل الغني مملكة يسوع حتى يلج الجمل في سم الخياط..

فكان لا بد أن أعيد إليه محفظته وأرضى بالفقر..

Twitter: @alqareah

23

أرضى بهذا الليل السرمدي في حانة تحت الأرض.

بأشعاري المميتة ولغط الرواد القوقازيين ورائحة الفودكا والأحذية والحلم الحافي القدمين الذي يطوي جليد سيبريا كل ليلة ويضع يده الثلجية فوق كتفي عندما تغمض عيون الناس ويبكي بلهجة بلدنا..

يذرف دموعاً ليبية.

يشكو طول الطريق وشح المؤونة ولذعة الجريدة الصباحية ورداءة العرض في مسرح العرائس وحمير الفندق التي ماتت وشوقها في السمسم.

يشكو مثل البنت ويبذر نقوده في شراء الفودكا ويفضحني أمام الأجانب حتى أبوح له بالسر الذي ليس وراءه سر، وأربت على كتفه مواسياً وأقول له بلهجة بلدنا (خليها على الله) فليس ثمة فرق حقيقي في نهاية المطاف. إن كل الأمور سواء.. إذا حفرت في الأرض تصنع بئراً وإذا حفرت في السماء تصنع مئذنة..

24

وتنتهي لعبتنا بالتعادل كما انتهت لعبة اثنين من المواطنين اجتمعا ذات مرة في قهوة (السعادة والاستقلال) لكي يتبادلا الشكوى من كيد النساء، فقال أحدهما للآخر مبدياً حيرته:

ـ تصور!. لقد عدت ذات مرة إلى بيتنا فجأة فوجدت امرأتي تخبىء فيلاً تحت السدة!..

قال له الآخر مبدياً تفهمه للمشكلة:

ـ أنا وجدت امرأتي تخبىء برغوثاً..

Twitter: @alqareah

فخرجا متعادلين رغم الاختلاف الواضح في حجم الأكذوبة واتفقا على إعادة المباراة.. لكن النتيجة لم تتغير قط، أعني حتى بعد أن صارت السدة مثل سفينة نوح لم تتغير النتيجة ولم ينهض الطوفان.

25

فيا ليلة طويلة ورديئة مثل الطريق إلى جالو.

يا ليلة برتبة أومباشي في سماء مزدانة بالنجوم، قطعت وجهي خجلاً أمام الغرباء، وقتلتني بالعار، فعودي إلى جالو وخبري أحبابنا أننا بخير ولا نسأل إلا عنهم، وأن جوابهم قد وصلنا وقرأناه مرة ومرتين لكننا لم نفهم ما فيه نظراً لوحشية الألفاظ وعمق المغزى وسوء الأحوال الصحية..

ونظراً.. ..

26

فالناس يحكون هنا، أعني في قوقازيا بشأن عمق المغزى أن الأب (اليكسي زخاروف) كان يزور راقصة متقاعدة عندها ببغاء، وكان الببغاء يقول بوقاحة في حضرة الأب:

ـ أنا بائعة هوى.. أنا بائعة هوى..

فقال الأب (اليكسي زخاروف) للمرأة ناصحاً:

ـ يا سيدتي أنا أملك في الكنيسة ببغاوين مباركين لا يعرفان شيئاً سوى الإنجيل فإذا تركتني أضع ببغاءك معهما فلعله سيتعلم منهما كلمة طيبة..

وافقت السيدة بالطبع وحمل الأب اليكسي زخاروف الببغاء

Twitter: @alqareah

الوقح إلى الكنيسة ووضعه مع طيوره في القفص. فلم يلبث أن صرخ كالعادة:

ـ أنا بائعة هوى.. أنا بائعة هوى.

إذ ذاك رفع أحد ببغاوات الأب اليكسي زخاروف رأسه وقال لزميله:

ـ ايفان.. ارم الإنجيل فقد استجاب الرب لدعواتنا.

ويقال، أعني في قوقازيا بشأن عمق المغزى، أن الحاج الزروق حلم ذات مرة بالملكة وابتسم لها في المنام.. وفي الليلة التالية حلمت امرأته بالملك وابتسمت له في المنام أيضاً، فأيقظها الحاج الزرلوق مبدياً ضيقه، وقال لها ناصحاً:

ـ شوفي.. فكينا من السياسة..

فجوع كلبك يتبعك.. ويغطي لك عين الشمس بالغربال.

27

جوع كلبك يتبعك ويوقد لك أصابعه العشرة شموعاً ويمشي في جنازتك ويدعو لك بطول العمر ويكتب لك شعراً حراً، فالجوع حبل الطاعة الذي لا ينقطع ولا تراه أجهزة الدعاية المضادة ولا يحتاج المرء إلى شرائه من السوق. الجوع مثل الماء والهواء حق للجميع، لكن الشبع بالفلوس.. والفلوس عند الملك.. والجميع حق الملك!. فتفضل بالدخول في هذه الحلقة المفرغة..

أعني در على عجل.. واترك الكسل.. وتذكر أنك تعلمت ذلك منذ نعومة مخالبك..

28

تذكر حزننا في مدرسة الأمير وحزن بائعة الفول ولهاثنا في فترة

Twitter: @alqareah

الاستراحة وراء (حنكة) العيش ونشيد الصباح تحت العلم وجوعنا في الحصة الرابعة على بعد صفحة واحدة من بائع الفطير وأسطورة التلميذ إبراهيم الذي لا يذهب للنوم حتى ينال حماماً دافئاً وكوباً من اللبن!..

تذكر لماذا سقطنا جميعاً في امتحان البلاغة.. أعني في ذلك اليوم المدهش عندما دخل معلمنا بخطوات ثابتة ووقف مستنداً إلى السبورة وقال لنا:

ـ اكتبوا الآن.. السؤال الأول.. وين السماء يا ريس؟!..

لم نعرف الإجابة.. ولم يعرفها معلمنا رغم أن النافذة كانت مفتوحة على مصراعيها وكان بوسعنا أن نغش الجواب.

رأس الخيط أن الدنيا مقامات وأن كل لقمة تدخل جوف جارنا يدفع ثمنها حماره وأن الملك سئل عن سياسة الدولة فقال للصحفيين:

ـ مثل سياسة شركة الحافلات.. واحد سواق.. وواحد كمساري والباقي يدفعون ثمن التذاكر وينتظرون على الرصيف.

ورأس الخيط أن الملك يمر من عين الإبرة معتقداً أنها قوس النصر!.. وإن المنطق يقول بالحرف الواحد أنه من الممكن أن يتزوج الحاج الزروق أربع نساء لكنه من المستحيل أن تتزوج أربع نساء بالحاج الزروق.

ومع ذلك.. فالمية تكذب الغطاس.. إن القصة معروفة في طول بنغازي وعرضها.. فقد بنى الحاج الزروق داراً وتزوج امرأة اسمها (اوريده) ثم بنى داراً وتزوج امرأة اسمها (نواره).. ثم بنى داراً

Twitter: @alqareah

وتزوج امرأة اسمها (زهرة). أما (ياسمينة) فقد زرعها في وسط الحوش.

30

فدعني أغمس أصبعي في ضوء قمركم واكتب لك مرثية العمر. أنعيك لمعارفك وأحبابك في الصفحة الأولى وأقول لهم بحروف حمراء مثل ضوء القمر أيها السادة.. تحية طيبة وبعد فأنا بقلب ملؤه الحزن والأسى أرثي لكم المواطن (س.ل) الكائن بشارع بوغولة والذي انتقل صباح اليوم إلي قبر جديد.

غير عنوانه..

من بنغازي إلى رحمة الله، وحمله أصدقاؤه على أكتافهم وحسدوه على الموت قائلين (هنيئاً له.. تريح)، دعني أغمس أصبعي في ضوء قمركم إذا كان ما يزال عندكم قمر..

... وعند منتصف الليل اكتشفنا صورة موشى دايان داخل إعلان معلق على جدار الحانة.. كان ينظر للناس بعين واحدة على عادة أغنياء الحرب، وكان الإعلان يدعو لشراء نوع جديد من معجون الأسنان، والعربات المجنزرة.

(احجز عربتك منذ الآن) قيل في صيغة الإعلان الشرير (تمتع بالراحة والسلامة مثل أبناء الرب في إسرائيل. جرب دباباتنا المصفحة عند وكيلك الدائم.. حافظ على فروة رأسك باستعمال شفتين.. تخفيضات مغرية لسائقي دبابات الأجرة.. كل منتجاتنا اقتصادية ومريحة ومزودة بمدفع رشاش..).

31

بكت ناتاشيا المحبة للسلام تحت وطأة الفودكا ووقفت مزمعة أن

Twitter: @alqareah

تمزق الإعلان.. اطلع صاحب الحانة هراوته من وراء البار وكسر لها أسنانها ثم دعاها إلى التزام الهدوء.. تخلى الرواد عن نشرة الأنباء وشرعوا يراقبونني بفضول.. كانوا يتوقعون مني بالطبع أن أقفز مثل النمر وأخنق صاحب الحانة دفاعاً عن أسنان ناتاشيا، لكن المرء ـ حتى إذا كان نمراً حقيقياً متنكراً في زي مواطن ـ لا يستطيع أن يقفز من مكانه بمقدار شبر واحد بعد أن يشرب زجاجتين من الفودكا.. إنه يكتفي بأن يدفن رأسه بين يديه ويغالب حزنه بالصبر واللبان.

32

يغالبه بحزن أكبر.

بالحلم الذي يعبر جليد سيبيريا كل ليلة حافي القدمين ويفتش عني بمصباحه السحري في الحانات وغرف التوقيف والجامعات البليدة ومحطات السكة الحديد، ويضع يده فوق كتفي على عادة أهل بلدنا ويثني شكوى مائة مليون.

يذرف دموعاً عربية من مائتي مليون عين.. يبكي مثل المطر ويبذر نقوده في شراء الفودكا ويطاردني بأغنياته المميتة عن الحب والهجران حتى أبوح له بالسر الذي ليس وراءه سر وأقول له على مسمع من رواد الحانة (ريت يا خويا.. أنت عارف أبله معنى الحب شنو)؟..

33

وينكسر الليل قطعتين تحت وطأة الكلمة القبيحة وينزف دماً أسود من نجومه البلهاء.. وتولد الشمس بعد ليلة المخاض ويتنفس الصبح مثل بقية الأطفال برائحة اللبن وتطلع الجريدة اليومية وتفتح

Twitter: @alqareah

المآذن أفواهها وتنقل إلى هذا العالم الغارق في حلمه وبوله نبأ عاجلاً من أقصى السموات:

الله أكبر.. يقول الخبر..

مش موشى دايان.. مش عربتك المجنزرة.. مش قصور الملك التي بناها في الهواء على أنقاض قلعة جده.. مش الحاج الزروق الذي مات قبل أن يولد بيومين..

فاحجز مكانك بين الناس منذ الآن.. تمتع بالراحة والسلامة التي لم يعرفها أبناء الرب في إسرائيل جرب وصفتنا البسيطة بدل عقاقير ساحر قريتكم المعقدة.. حافظ على فروة رأسك باستعمال حب الناس.. كل منتجاتنا بالمجان ومعها أيضاً (ارحم ولديك).

34

لكن الدرويش لا يصلح للإعلان..

أعني لا يحسن الحرفة، ولا يستطيع أن يعري سيقانه من باب الإغراء مثل بنات نيويورك ويغمز المواطنين لكي يغريهم بشراء الجيليت.. إنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً في العالم سوى أن يقف وحده تحت الأسوار مثل حصان طروادة، وينتظر أن يجره أعداؤه على وجهه في الشوارع.

وغالباً يجره أعداؤه على وجهه وظهره معاً ويركبون فوق رأسه ويتركون أطفالهم يتعلقون في ذيله ويمثلون به أشنع تمثيل حتى يدركهم التعب والملل ويذهبون للنوم.. عندئذ..

آه.. عندئذ يفتح الحصان صدره ويطلع منه رجالاً يفتحون أبواب مدينتكم.. يرفعون المزاليج البدائية ويثقبون الأسوار وينزعون

Twitter: @alqareah

المسامير الصدئة ويملأون صدر مدينتكم بالهواء النقي فلا يعود يدخلها الذباب ولا العلماء ولا عدو الله موشى دايان ولا عبد الله الحاج الزروق.

لأنه ممنوع دخول الأطفال..

35

لأن المرء لا يبني الغرفة فوق سقف الصنور إلا إذا كان يريدها أن تنهار فوق رؤوس أطفاله.. أعني كما أشار الحاج الزروق ذات مرة عندما سأله الصحفيون عن رأيه في موضة الميني.

(كويس) قال الحاج الزروق (لكن الكلام كله عالدروج).

46

فهذا بيت الداء..

هذا الذي لا تستطيع أن تشتريه من البقال أو من دار الأزياء، لأن العطار لا يصلح ما أفسده الدهر وإذا أصلحه فإنه يفعل ذلك عادة من باب الدعاية فقط وينكشف القناع في نهاية المطاف أمام أعين الغرباء..

حدث ذلك منذ عامين عندما أصر موظفو البروتوكول في إسرائيل على أن ترتدي رئيسة الوزراء موضة الميني خلال زيارتها لأمريكا لكي تظهر بمظهر السيدة المودرن، ورصدت وزارة الدفاع مبلغاً من المال لتغطية مصاريف الثوب وخبير الموضة القادم من باريس.

فعل الخبير كل ما في وسعه لإصلاح حال رئيسة الوزراء ثم وقف يتأملها مغلوباً على أمره وسألها بعد برهة (من سيستقبلك في المطار)؟..

Twitter: @alqareah

(الرئيس ريتشارد نيكسون طبعاً) قالت زعيمة الوزراء مبدية دهشتها (لماذا تسأل)؟..

(لا شيء) قال الخبير (ولكني لا أستطيع أن أنقلك إلا إلى عصر ريتشارد قلب الأسد).. فلا تحمل حمارك أكثر مما يطيق.. ولا تطلب المستحيل في موسم المشمش.

37

لأننا لا نستطيع أن نبني قصراً بسعف النخل.. وإذا بنيناه من باب الدعاية هدمته الريح من باب الواقع.. إننا لا نملك في أيدينا سوى خشب الصنور والطوب الذي نخره السوس.

مواد معدة للهدم وليست للبناء.. عملة مزرية مثل جولدا مائير وريتشارد قلب الأسد وحزب الماباي الذي تأسس على أنقاض منظمات المافيا والجرائد الليبية التي تصدر مرة في الأسبوع لسوء حظ إسرائيل وتغيب بقية الأيام لحسن حظ الليبيين.

نحن لا نستطيع أن نبني دنيا بالزينقو.

بأغنياء الحرب الذين ينظرون للناس بعين واحدة.. والعجائز المخرفة من القرون الوسطى ومدمني القهوة التركية ودعاة القهر العصري والمبشرين ورعاة الكنائس البيض الذين يذرعون أدغال الزنوج لكي يهدوهم إلى عبادة الله ثم يقولون لهم إن الزنوج خرجوا من الجنة لأنهم كانوا يحملون حقائب آدم.

هذه الأحجار لا تصلح للبناء.

لكن ميزة الإنسان أنه لا يرضى بأمنية واحدة أبداً.. إنه لا بد أن يملك أمنيتين على الأقل.. الأولى أن يخلق الله من السراب نهرا. والثانية أن يملأ النهر بسمك البوري.

Twitter: @alqareah

وفي انتظار عشائه السماوي يستطيع الإنسان أن يموت بالعطش..

38

فاحلم بمقدار.. وتحصن بالمعرفة.. وإذا رأيت زنجياً في الليل فقل له نهارك سعيد.. لكي يعرف أنك تفهم في المنطق وعلم الألوان.

39

فالبناء قارب على الانتهاء ولكننا ما نزال في حاجة إلى الرجال العارفين أمثالك ببواطن الأمور لكي نبني المدخل والسقيفة.. نحتاج إلى (الإنسان) العارف في بناء عالمنا القادم.. نحتاج إلى المظاهر وحفلات الكوكتيل والرتب والمقامات والرجال الذين يعيشون على القشور مثل حمير الفندق والسيدة جولدا مائير التي سمعت أن الكوليرا قتلت مائة لاجىء فلسطيني فأمرت بترقيتها إلى رتبة جنرال حتى اضطر مجلس الوزراء إلى لفت نظرها إلى أن الكوليرا لا تؤدي الخدمة العسكرية في إسرائيل.

(يا خسارة) قالت جولدا مائير إذ ذاك (باهي عينوها سفير)..

نحتاج إلى أهل العلم..

إلى المظاهر الزائفة والقشور والخطب والرجال الذين يعيشون فوق القشرة ويرسلون صنارتهم في الأعماق والغرور والأنانية والضياع المطلق في قبضة المظهر الخارجي ورنين الأسماء.. نحتاج إلى السيدة جولدا مائير التي سئلت عن رأيها في التفرقة العنصرية فقالت للصحفيين:

ـ والله مش كويسة.. لكن خير من بلاش..

Twitter: @alqareah

40

ونحمل صليبنا ونمشي.. لأنه لا بد من روما وإن طال العذاب.. لأن الإنسان ـ مثل ساعته ـ إما أن يمشي أو يذهب إلى ورشة التصليح.. ونحن نزعم أن نصل.. وسوف لن يضرنا أن نضطر أحياناً إلى أن نسير في جنازة الملك ونهتف بحياته وندعو له بطول البقاء.

ـ يعيش صاحب السدة العلية.. يعيش ألف مرة.. إذا كان ذلك سيقنع عزرائيل.

«20 فبراير 1971»

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

وجهة نظر..
في مشكلة ملحة

العقل السليم في الجسم السليم..
دعاية للمصارعة

1

يقال للمواطن الليبي أن مشاكل مجتمعنا تندرج تحت ثلاث خانات. خانة للفقر وخانة للمرض وخانة للجهل، ويقال له أيضاً أنك ما دمت قد عرفت مشاكلك إلى هذا الحد وعرفت مخبأها السري فلم تعد ثمة ما تحتاج إليه سوى أن تضع لها قليلاً من سم الفئران.

أنا هنا أريد أن أقول للمواطن الليبي أن لعبة الخانات الثلاث قد لا تعني شيئاً في الواقع سوى أننا لا نعرف مشاكلنا، أعني لقد حدث ذلك من قبل في حكاية العميان الذين جمعهم المهراجا في غرفة واحدة لكي يتعرفوا على فيله، فتعرفوا على كل شيء فيه إلا أنه فيل. وإذا كان النقاش العادي لم يستطع قط أن يضمن إقناع مواطننا بأية حقائق جديدة فإنه أيضاً لن يزيد اقتناعه بأخطائه الحالية. إن المغامرة خالية من الخطر تقريباً.

المشكلة تبدأ ـ كالعادة ـ من كلمة (الجهل).

Twitter: @alqareah

فالمواطن عندنا لا يسيء فهم هذه الكلمة المعقدة فحسب بل إنه في الواقع لم يفهمها قط في أي يوم من الأيام، لقد دخل الاصطلاح إلى قاموسنا المعاصر بمثابة ترجمة لكلمة (الأمية) في لغات أخرى ورسخ في ذهن مواطننا بهذا المعنى الضيق وحده حتى أنه لم يعد يرى ثمة ما يدعوه إلى مراجعة هذا الخطأ.

لكن الجهل ليس هو الأمية.. هذه بديهية غير مفاجئة جداً في الدراسات المعاصرة، إنه لا يتمثل في الأمية إلا بقدر ما يتمثل مرض السل في قليل من السعال، وإذا قيل لك أن المرء قد يسعل لألف سبب آخر غير إصابته بالسل، فسوف ترى أن تشخيصك للمرض يبدو ساذجاً إلى حد لا يليق بك..

إن المنهج الحديث في دراسة المشكلة يسلك طريقاً مختلفاً ويوصي بتخطي لعبة الخانات الغامضة لإيجاد زاوية الرؤية الصحيحة في مكان آخر، والرؤية الصحيحة بسيطة إلى حد لا يصدق!

إن الجهل ليس وحشاً مختلفاً عن الفقر أو المرض بل انه في الواقع (الترجمة الوحيدة الممكنة) لمعنى هاتين الكلمتين معاً. كل ما في الأمر أن الجهل (فقر من الداخل).

وإذا اتفقنا هنا على أن (الفقر) لا ينتهي بمجرد حصولك على كيس من أوراق العملة، بل ينتهي فقط إذا كانت أوراق العملة مقبولة في السوق وإذا اتفقنا على أن (الثراء) لا يقاس بما يملكه المرء بل بقيمة ما يملكه المرء..

وإذا كنت لا تحب العناد لوجه الله فسوف ترى بنفسك أن الجهل أيضاً لا ينتهي بمجرد قدرتك على القراءة في كتب المعرفة

Twitter: @alqareah

بل ينتهي فقط إذا عرفت حقاً، سواء عن طريق القراءة أو عن طريق المعايشة.

والمشكلة بالضبط أن كل مخلوق يعتقد حازماً أنه (يعرف). أعني هذه طبيعة النكتة المريعة. فالجهل لا يملك سوى علاج واحد اسمه المعرفة، ولكن العارفين في أغلب الأحيان هم بالذات السادة الجهلاء.

لقد قرر الإمام الغزالي هذه الحقيقة بصورة أفضل عندما قال منذ ألف عام (ما قارعت عالماً إلا غلبته وما قارعت جاهلاً إلا غلبني) لكن الظاهرة غير المعقولة قادت في نهاية المطاف إلى إيجاد التفسير الصحيح لمشكلة الجهل بأسرها.

حدث ذلك بعد أن بدأت الدراسات المعاصرة تشير باطراد إلى أن أمراض الجهل ـ التي تدعى عادة باسم التخلف الحضاري ـ لا تختلف في الواقع عن أية أمراض (عقلية) أخرى بل انها في الغالب لا تقل عنها ضرراً أيضاً. فالجهل حالة غيبوبة تشبه إلى حد بعيد حالة الخدر الجزئي التي يعايشها المرء عندما يقع تحت طائلة العقار. إنها لا تبدو له غير طبيعية أو خاطئة ولكنها تبدو كذلك لمن يراقبه من النافذة.

هذا الفرض الشجاع أدى في نهاية المطاف إلى اعتبار الجهل مرضاً عادياً لا يختلف كثيراً ـ ولا يقل أيضاً ـ عن معظم أمراض سوء التغذية، انه نتيجة عادية لما يناله المواطن في بيئته، ليس من حيث كمية الطعام فقط بل من حيث قيمته الغذائية بالذات.

وهنا بدأت سلسلة مشوقة من المفاجآت، فقد استغرق العلماء وقتاً قصيراً جداً قبل أن يتضح لهم أن تفسيرهم لمشكلة الجهل باعتبارها مرضاً عادياً لم يكن التفسير الصحيح فحسب بل كان

Twitter: @alqareah

أيضاً التفسير الصحيح الوحيد الذي يستطيع أن يشرح سلوك المصاب وثقته في جهله وإصراره على ادعاء المعرفة وتعلقه بحلوله المريضة إلى آخر رمق من حياته.

إن (المصاب) لا يستطيع أن يفعل شيئاً آخر لخمسة أسباب كاملة:

السبب الأول أن الجهل ـ مثل جميع الأمراض العقلية ـ مرض لا يستطيع المصاب أن يحدس أنه مصاب به إلا بقدر ما يحدس النائم أنه نائم حقاً.

السبب الثاني أن الجهل ـ مثل جميع الأمراض العقلية أيضاً ـ منطق ذاتي يأتي من الداخل عن اقتناع كامل ويوفر بذلك حالة من (السلام النفسي) التي لا تبدو مزيفة إلا لمن ينظر إليها من الخارج، لذا فإن عناد الجاهل ليس شيئاً في الواقع سوى نوع من الدفاع عن (سلامة النفس) إنه لا يرفض حقائقك لأنه يكره الحق لحساب الشيطان بل لأنه لا يستطيع أن يترك عالمه ينهار فوق رأسه لحساب حقائقك، إن ذلك يبدو بالنسبة له مجرد دعوة للمشي في جنازته.

السبب الثالث أن الجهل ـ مثل جميع الأمراض العقلية ـ لا يسبب ألماً للمصاب نفسه بقدر ما يسبب آلاماً كثيرة لمن يحبونه أو يحيطون به. لذا فإن إقناع (المريض) بالبحث عن علاج ما يبدو دائماً عملاً صعباً للغاية إن لم يكن مستحيلاً. إنه لا يحس بحاجته إلى علاج من أي نوع ما دام أصلاً لا يحس بالألم، لكن المشكلة لم تبق قط بدون حل. لقد تكفلت الكوارث الاجتماعية دائماً بفرض العلاج على المريض إذا التزم جانب العناد أطول مما ينبغي.

السبب الرابع أن الجهل ـ مثل جميع الأمراض العقلية ـ يحقق رابطة متينة بين الفئات المصابة به بغض النظر عن اختلافاتها

Twitter: @alqareah

الاجتماعية ويرصها جميعاً صفاً واحداً ضد الأعداء وراء الجدار، في حالة استعداد دائمة للبدء في القتال. فإذا كانت الفئات صغيرة الحجم مثل الحزب النازي في بداية نشأته فإنها غالباً لا تستطيع أن تلحق ضرراً ملموساً بمن يحيط بها وإذا أتيحت لها فرصة النمو مثل الحزب النازي أيضاً بحيث صار في وسعها أن تضم القطاع الأعظم من القوة الكلية فإنها تثبت أقدامها في الأرض وتنمو بلا حساب في تربة غنية من الاقطاع الفكري الأسود ويصبح دمارها أمراً مستحيلاً بدون وقوع الكارثة الاجتماعية. ولكن الدمار لا بد منه في نهاية المطاف. لقد أدى هذا القطاع الفكري ذات مرة إلى صلب المسيح بأيدي اليهود، وأدى في مرة أخرى إلى وضع ادولف هتلر في مصاف المنقذين الكبار غير أن نتائجه كانت دائماً خاطئة وكان التاريخ يصحح له هذه الأخطاء بقلم مغموس في الدم.

السبب الخامس أن الجهل ـ مثل جميع الأمراض العقلية ـ لا يمكن علاجه من الخارج تحت أية ظروف، لأن أول مشاكل المريض أنه لا يعترف بوجود شيء مجد في الخارج. فالمرء يذهب إلى طبيب الأسنان عندما يؤلمه ضرسه لانه يؤمن مقدماً بأن ذلك الطبيب يعرف أكثر منه فيما يخص الأسنان وأنه يستطيع أن يحرره من الوجع عن طريق استعمال (الوصفة الصحيحة) لكن اللعبة مختلفة كلية بالنسبة للمواطن الذي لا يؤلمه ضرسه بل يؤلمه عقله الخرافي وحده، إنه في الدرجة الأولى لا يحس بالوجع وفي الدرجة الثانية لا يرى ثمة حاجة إلى أن يزور معلم الجغرافيا لكي يثبت له أن الأرض كروية ما دام يعرف أنها ليست كروية على أي حال بل مسطحة ومحمولة على قرن ثور، إن المشكلة هنا تخص نوع المعرفة غير العملية التي لا يستطيع المصاب أن يعترف لنفسه بأنه يحتاج إليها، فالمرء لا يسقط على رأسه في الفضاء إذا أصر على الاعتقاد

Twitter: @alqareah

بأن الأرض طبق يحمله الثور إلى الكوشة. وما دام المرء لا يسقط على رأسه، بل يمشي مثلك على قدميه الجاهلتين فمن الصعب أن يخطر له ذات مرة أن (يصحح) معلوماته لمجرد الرغبة في (المعرفة المجردة) لذاتها إنه مرتبط عقلياً بالنتائج العملية للمعرفة، وليس مما يجديك نفعاً أن تحاول إقناعه بأن قبول كروية الأرض سوف يساعده على إحراز نتائج عملية أكثر مما ينتظر.

فالمشكلة بالنسبة له تقف دائماً عند هذا السؤال البسيط: ما دمنا مستريحين على الأرض، وما دامت نظرية الطبق والثور لا تجعلنا نسقط على رؤوسنا في الفضاء فما الذي يدعوك إلى تشويش أفكارنا بالأوهام النظرية؟

إذ ذاك عليك أن تلتزم الصمت أو تخنقه بأصابعك أو تذهب إلى القمر وترسل له صورة أمه الأرض خالية من صورة والده الثور. إن العلم لا يعرف علاجاً آخر حتى الآن!.

هذه التحديدات الخمسة لم تؤد بالطبع إلى القضاء على الجهل في أي مكان ولكنها أدت إلى فهمه فهماً مرضياً وتشخيصه باعتباره مرضاً عادياً يأتي من البيئة المحيطة بالفرد كما تأتي بقية الأمراض، ويمكن مقارنته في يسر بأمراض سوء التغذية التي تنجم عن نقص في قيمة الغذاء وكميته معاً، لكن الفرق الحاسم بين المواطن المصاب (بنقص المعرفة) والمواطن المصاب (بنقص التغذية) ان أحدهما يسعل طوال الليل ويعاني من فقر الدم والسل، والآخر يركض مثل الحصان ويحمل عصاه معه لكي يكسر رأسك إذا قررت أن تلعب أمامه دور الطبيب، إنه المصارع السخيف الذي خدعنا منذ ألف عام بدعايته المغرضة عندما اقنعنا بأن العقل السليم في الجسم السليم. فالواقع أنه لو صدقنا هذه الخرافة لطالبنا غداً بأن

Twitter: @alqareah

يوضع مصير العالم في أيدي الحمالين.. لكننا لا نصدقها لحسن الحظ لأننا نعرف أن الجسم السليم مجرد نتيجة مرضية واحدة من ألف نتيجة أخرى للعقل السليم ولأن (المصارعة) في العالم ليست مجرد مباراة مسلية بين رجل سمين ورجل سمين آخر بل سباقاً مرهقاً بين العقول الواعية القادرة على احتمال الصراع.

وأسوأ ما في الأمر أنه سباق خال من الروح الرياضية وأن المنتصر لا يكتفي بإلقاء خصمه على الأرض بل يفضل دائماً أن يسلخ فروة رأسه ويسرق امرأته ويمحو أثره بالممحاة. إنه صراع البقاء الذي يعتقد معظم الناس أنهم يعرفون عنه كل شيء، وهم يجهلون في الغالب أبسط أسلحته. ذلك الخطأ المميت الذي يرتكبه الجاهل مرتين إذا لم يفقد رأسه في المرة الأولى.

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

2

الجهل مثل المعرفة..
قابل للزيادة بلا حدود

الدراسة التي أدت إلى تفهم ظاهرة (الجهل) باعتبارها حالة عقلية معينة تشبه ظاهرة المرض أدت أيضاً إلى تسليط أضواء جديدة على شخصية (الجاهل) نفسه وشرح سلوكه المعقد وتفهم متاعبه الحقيقية الكامنة وراء قناع الرضا. لكن المرء لا بد أن يلاحظ هنا أن تشخيص المرض على هذا النحو قد وضع كلمة (الجهل) في مكان مختلف كلية عن مكانها القديم. إنها لم تعد تعني (عكس المعرفة) بل عكس الصحة العقلية، والفرق هنا ليس فرقاً فوق السطح فقط.

فليس ثمة أحد في العالم سليم الجسم مائة في المائة، هذه المعجزة لم تحدث حتى الآن وليس من المتوقع أن تحدث أيضاً قبل مضي زمن طويل إن المرء يملك دائماً نصيبه من المتاعب الصحية ولكنه لا يدعو نفسه مريضاً إلا إذا أقعدته متاعبه عن أداء شؤونه الحياتية الملحة. ذلك بالضبط هو المفهوم المعاصر لمعنى الجهل.

فليس ثمة أحد في العالم يعرف الصواب عن كل شيء مائة في

Twitter: @alqareah

المائة، ذلك أيضاً لم يحدث حتى الآن وليس من المتوقع أن يحدث في المليون عام القادم. ولكن المرء لا بد أن يعرف (مقداراً) معيناً من الأشياء الصائبة لكي يتمكن من تدبير شؤون حياته اليومية، وبمدى كفاية هذا المقدار وفعاليته في مواجهة مشاكل حياتنا تقاس ظاهرة الجهل والمعرفة.

إننا لا نقاتل طواحين الهواء. ولا نخلع الألقاب من باب العبث اللفظي لكي ندعو مواطناً ما باسم الجاهل أو العالم وليس مما يجدينا أن نضيع وقتنا في حلب النجوم.

إننا نعيش هنا فوق الأرض، ونستمد منها قوت أطفالنا ونستمد منها أيضاً مقاييسنا للجهل والمعرفة على حد سواء، الحياة وحدها هي مقياسنا الصحيح، فإذا كان بوسعك أن تفيدها وتجعلها أكثر بهجة فأنت تعرف، وإذا لم يكن بوسعك أن تفعل من أجلنا شيئاً سوى أن تزيد متاعبنا وتشوه طموحنا فأنت تجهل ذلك سواء كنت تحسن القراءة أو لا تحسنها، سواء كنت تلبس جبة درويش أو جلد نمر، إن المظهر لا يخص مقاييسنا ولكنه أيضاً لا يستطيع أن يخدعها بمقدار ذرة واحدة.

هذا الخط الفاصل بين العارف وغير العارف وضع ظاهرة الجهل في مكانها الصحيح وعراها من معظم أقنعتها الخادعة وأعطاها المفهوم الحقيقي القادر على اكتشافها في كل مكان، إن شعراء الزنوج يستعملون هذه الصيغة في مخاطبة الأمريكيين البيض باعتبارهم قطيعاً من الثيران الجهنمية الجاهلة رغم أن نسبة التعليم بين البيض تقارب الحد النهائي، وكذلك استعملها (رونبرج) عندما قال عن متاعب بلده الحالية: السويد لم ترفع نسبة التعليم إلى مائة في المائة ولكنها رفعت نسبة قراء المجلات الجنسية، إن القدرة على

Twitter: @alqareah

القراءة لم تعد تعني القضاء على الجهل في القاموس المعاصر، ولعل المواطن الليبي سيحس بالسلام أكثر إذا قيل له الآن إن الدراسات المعاصرة لم تعد تعتبره أكثر جهلاً من المواطن الغربي أو الشرقي إنما تضعهما معاً تحت مسطرة واحدة تدعى بفهم ظاهرة الحياة فهما صحيحاً والمواطن الأقل معرفة هو الذي يبدو أقصر قامة بالنسبة للمسطرة، إن المقياس لم يعد لعبة مظاهر تخص تسريحة الشعر وطول الميني وشكل أحمر الشفاه ولون العينين أو الوشمة أو الجربي أو العمامة، هذه اللعبة ماتت وسوف يموت اللاعبون، فالمقياس الآن يخص الجوهر وحده، يخص قدرتك على أن تجعل حياتك وحياة الآخرين انتصاراً شريفاً على الموت أو هزيمة مهينة أمامه في الجولة الأولى، إن الحياة لا تملك عدواً آخر.

لكن الجاهل يملك أعداء تحت كل حجر.

إنه يعاني من هذا الوهم لأنه لا يعرف شكل عدوه الحقيقي، ذلك يمكن أن يحدث لك أيضاً إذا اتصل بك أحد ما غداً وقال لك في الهاتف بلهجة ليبية صميمة انه يزمع أن يكسر رأسك.

إن كل مواطن في المدينة سيصبح عدوك في غمضة وكل مواطن سيبدو لك بمثابة قاتل مجنون يوجه إليك سكينة في الخفاء، وسوف تعيش هذا الكابوس حتى تعرف عدوك بالضبط أو تمزق قميصك الوحيد. إن الجاهل يعيش هذا الكابوس من المهد إلى اللحد.

ذلك يمكن أن يدعوك إلى الرثاء له، فالمريض ليس مذنباً بل ضحية ولكن مشكلة الجاهل أنه يبادر إلى كرهك بمجرد أن يكتشف أنك ترثي له لأن ذلك بالضبط ما يعني لديه غاية الإهانة، هذه الشخصية المريضة ليست أسطورة، وليست أيضاً صناعة

Twitter: @alqareah

محلية في ليبيا وحدها أو في الدول النامية وحدها، إنها موجودة في كل مكان، أعني في ليبيا وفي السويد أيضاً بدرجة واحدة، وتتكلم كل اللغات وتلبس كل الأزياء وتنط على كل الحبال لكنها ليست خافية على مناهجنا المعاصرة، إننا نعرف كل شيء عنها ونستطيع أن نكتشفها بيسر سواء كانت ملفوفة في الجربي أو نصف عارية على رصيف سان باول في هامبورج ونستطيع أيضاً أن نضع أصبعنا فوقها ـ مهما اختارت لنفسها مكاناً عالياً ـ وننزع قناعها أمام المواطنين باعتبارها (قنبلة زمنية قد لا تنفجر ولكنها على أي حال معدة للانفجار فقط).

نحن لا نفعل ذلك اعتماداً على الفراسة أو قراءة الفنجان بل اعتماداً على مقاييس علمية أكثر دقة من المسطرة والجاهل لا يستطيع أن يخدع مقياسنا إلا بمقدار ما يستطيع رطل البصل أن يخدع الميزان، إننا نعرفه بخمس علامات تجارية مسجلة باسمه.

العلامة الأولى أنه يعرف الصواب عن كل شيء، والأشياء الصغيرة التي لا يعرف عنها الصواب يعلقها في عنق إله الرعد، ذلك من شأنه أن يدعوك إلى أن تتذكر (ساحر القرية) في حضارات الزنوج، أعني العجوز الجهنمي الذي يزين رأسه بالقرون ويحل للزنوج البؤساء كل مشاكلهم بالرقص فإذا مرض أحدهم بالحمى أعطاه بعض الأعشاب، فإذا لم تشفه الأعشاب يركله في ظهره ويخبره أن (إله الرعد النحاسي) يريده أن يموت. إن الجاهل لا يحتاج دائماً إلى القرون ولا يحتاج أيضاً إلى أن يظهر فقط بهذا المظهر الواضح، إنه أحياناً يجلس في مكتبه ويكتب لك بقلمه الذهبي خطة كاملة لحياتك أنت وحياة أطفالك، ولكنه دائماً يحمل العلامة التجارية المسجلة باسمه، إنه يعرف كل شيء

Twitter: @alqareah

بالتفصيل، ويعرف بالذات (الصواب وحده) على الأقل بالنسبة لعقله المصاب.

العلامة الثانية أنه يقف دائماً عند محور الأرض والدنيا تدور حوله، كل شيء يتحرك بالنسبة له أو يقف بالنسبة له وحده، لأنه هو المركز الحقيقي. هو (العالم) كما ينبغي للعالم أن يكون، إنه متسامح وشريف وعفيف وطاهر الذيل ما دام ذلك كله يستمد معناه من وجوده في مركز الأرض، إنه يموت من أجل شرف امرأته لكنه أيضاً يسطو على امرأة عدوه بضمير شبه نظيف.. والمرء لا يجوز أن يتوقع ظهور هذه الشخصية في مظهر واضح إلى هذا الحد تحت كل الظروف، إن اللعبة أكثر تعقيداً بالطبع، فدرجة الإصابة بالمرض تتفاوت بين الناس كما تتفاوت بصمات أصابعهم لكن القاسم المشترك النهائي أن (الجاهل) لا يستطيع أن يتنازل عن عرشه في مركز العالم دون أن يفقد جهله، لأنه إذ ذاك يرى الحقيقة ويرى نسبية الأشياء، وإذا قدر للأعمى أن يرى فإنه لا بد أن يفقد عماه.

العلامة الثالثة أن الجاهل لا يبيع بضاعته بالمنطق بل بالشعر وحده، إنه لا يقنعك بفكرته بل يغريك بها، وإذا رفضت إغراءه يلجأ إلى (تهديدك) وإذا رفضت تهديده انقطعت علاقته بك عند هذا الحد، إنه لا يجيد استعمال الرباط الفكري ولا يعرف كيف يحشر يده داخل دماغك لكي يقنعك بحجته لأن هذه المعجزة لا تتم بدون (الإقناع المنطقي) ولأن الإقناع المنطقي آخر بضاعة في حانوته المعبأ بالأشعار. إن الناس يقيسون المسافات بينهم عادة بالأميال أعني بمقدار بعد أحدهما عن الآخر، ولكن هذا المقياس في الواقع رديء إلى حد لا يحتمل، إن المسافات بين البشر لا بد أن تقاس أحياناً بالسنين الضوئية. فالمشكلة لا تخص الفضاء

Twitter: @alqareah

الخارجي بل اللقاء العقلي وحده، إنك تجلس أحياناً بجانب جارك وتحس أنك بعيد عنه بمسيرة ألف عام، وتتعرف أحياناً على صديق بعيد وتحمله معك في صدرك، لأن المسافة لا وجود لها داخل هذه الأبعاد العقلية، إن عالم الإنسان غير خاضع لقيود المادة، ولكن مشكلة (الجاهل) انه لا يعرف طريقاً يصل به إلى عقلك سوى أن يشدك من ذيلك، أعني أن يستميل مشاعرك بالإغراء أو يشلها بالخوف. فإذا أثبت له أنك لا تملك ذيلاً وأنه لا يستطيع أن يعبر أبعادك العقلية بحماره الأعرج، فإنه عادة ينفض يديه منك بأن يقطع رأسك أو يكرهك في الخفاء. إن الجاهل لا يستطيع أن يسلك طريق النقاش المنطقي دون أن يفقد جهله، أعني يموت جائعاً ويمشي في جنازته ويتقبل تهاني المعزين.

العلامة الرابعة أن الجاهل مثل ساعة مليئة بالأوساخ ـ تشير عقاربها عادة إلى منتصف الليل فيما يتناول الناس إفطارهم في الصباح ـ إنه يعيش متأخراً بضع سنوات وأحياناً أيضاً بضعة قرون دون أن يهمه بالطبع أن العالم من حوله لا يتحرك طبقاً لتوقيته الرديء، إنه شبح من مذبحة الماضي وراء قناع مواطن معاصر. جزيرة تائهة أو قارة بأسرها تائهة تتسكع في عصر منقرض وتراقب عصرنا بازدراء مستعدة لأن تعلق في عنقه أية تهمة تخطر ببالها بمجرد أن يتجرأ على إبداء شخصيته المختلفة، ان الجاهل حارس مقبرة غير مرئية.

يحصل على (ثروته) الفكرية بطريق الميراث، ويضع كرسيه عند ناصية الزقاق ويحرس (أملاكه) سواء كانت بيتاً واحداً أو عشرة بيوت أو عشر وصايا، ويدق عنقك بعصاه الخيزران إذا رأى فيك ثمة ما يهدد ثروته بالضياع، ويتهمك طبعاً بأي تهمة تخطر في

Twitter: @alqareah

رأسه العجيب من فساد الأخلاق والتفسخ إلى قلة الحياء.

مقياسه الوحيد لإيجاد الخطأ من الصواب أن الصواب هو ما فعله جده والخطأ هو ما يفعله أبناء جيله وأسوأ ما في الأمر أن مقياسه الرديء ليس رديئاً فحسب بل انه عادة نصف (مجيد) إنك لا تستطيع أن ترفض مقاييس الرجل الجاهل دون أن يتهمك بالخروج عن التقاليد الحميدة والعادات المجيدة لأن هذه العقوبة بالضبط هي سلاحه العقلي الوحيد.

العلامة الخامسة أن الجاهل رجل مريض وليس رجلاً يتظاهر بالمرض، ذلك يعني أنه ليس ممثلاً يفضل أن يؤدي أمامك دوراً ما كما يحدث عادة بالنسبة للمراهقين. فالتلميذ المراهق قد يسبب لك كثيراً من المتاعب لمجرد رغبته البريئة في أداء دور (الفتوة) أو اللص الظريف ولكن متاعبه كلها مجرد لعبة خالية كلية من صفات الاقتناع المنطقي ، أما بالنسبة للرجل الجاهل فإن (الدور) حقيقي وجاد إلى حد لا يطاق، إنه مقتنع بفكرته أيضاً اقتناعاً داخلياً لا تردد فيه، وليس بوسعك، أو بوسع أية سلطة عقلية أخرى أن تزجره كما تزجر الطفل أو تقرص له أذنيه، إن عليك أن تعامله بمثابة مخلوق عاقل مريض، وعليك أن تتصرف بثبات إذا اكتشفت في لحظة ما أنه بدوره يعاملك أيضاً باعتبارك (مواطن مسكين يستحق الهداية) فاللعبة نسبية حقاً في نهاية المطاف، والمرء لا بد أن يفهم بطريقة ما أن السم قد يبدو بضاعة غير مرغوب فيها لكنه ليس كذلك بالنسبة للعقرب.

هذه علاماته الواضحة، هذه آثار أقدامه الجاهلة على كل دروب العالم، إن الجاهل لم يعد سراً خاصاً لتركيبة ما، ولم يعد بوسعه أن يدس رأسه في الزحام أو يختفي وراء قناع القراءة والفصاحة

Twitter: @alqareah

والشطارة اللفظية، إنك تستطيع أن تحشره تحت هذه المسطرة وتحدد له بالضبط (طول) جهله من أي وقت، فالمقياس واضح إلى حد كاف، ثم إنه مرن وقادر على أن يضع كل مخلوق في مكانه الصحيح.

وما دام بوسعنا أن نقيس المشكلة بالنسبة للفرد، فإننا نحتاج إلى خطوة صغيرة واحدة لكي نقيسها أيضاً بالنسبة للمليون.

Twitter: @alqareah

3

الضعيف يموت.. أو يربي شنباً..

الصورة التي تم تحديد أبعادها هنا بالنسبة لشخصية المواطن الجاهل لا ينقصها شيء من ملامح (المجتمع) الجاهل بأسره، ان المجموع بالطبع هو دائماً حاصل جمع الأجزاء والمرء يستطيع بيسر أن يرسم في ذهنه صورة تطابق الأصل لقطيع من الأحصنة البرية ما دام يعرف شكل حصان بري واحد، لكن عملية الجمع تحتاج إلى مهارة عقلية خاصة.

فالطفل يتعلم في حصة الحساب أن تفاحة زائد تفاحة لا بد أن تساوي تفاحتين، لكنه غالباً يحتاج إلى سنوات طويلة من ممارسة الواقع لكي يتعلم أن مائة طوبة زائد مائة طوبة لا تساوي مائتين بل تساوي بيتاً جاهزاً للسكن، إننا لا نجمع الأشياء لكي نكومها عبثاً في كوم واحد بل لكي نؤدي بها غرضاً حياتياً خاصاً، ومن الخطأ أن نتصور بعد ذلك أن الحياة نفسها لا تفهم مثلنا في تأدية الأغراض.

إن عمليات الجمع البسيطة لا تحدث في غير مدارسنا الأكثر بساطة أما ما يجري في الواقع فإنه عادة يتجاوز حد الجمع إلى

Twitter: @alqareah

إيجاد (حالة المجموع) نفسها، ذلك يعني أننا لا نحصي قطرات المطر فوق قميصك ولا يهمنا عددها أيضاً بل يهمنا فقط أن قميصك مبلول، وإذا بذلت محاولة أمينة لفهم هذا المثال في شكله البسيط فسوف تفهم أيضاً ما تعنيه الدراسات المعاصرة عندما تصر على أن (المجتمع الجاهل) ليس قطيعاً من المواطنين الجهلاء بل (مخلوطاً معقداً) لحالات عقلية متباينة تتجمع عند مستويات مختلفة لتصنع شكلاً نهائياً واحداً.

إن النقطة الهامة التي أشير إليها هنا للمرة الثانية تتمثل في اعتبار الجهل نقيضاً (للصحة العقلية) وليس للمعرفة، فالجاهل ليس دماغاً أبيض ممسوحاً لا يضم في داخله سوى الفراغ بل دماغ مليئ حتى حافته بأشكال خاصة من المعارف الخاطئة التي لا تختلف في طبيعتها النهائية عن طبيعة المرض الجسماني نفسه، أي غير ذات فائدة بالنسبة لحياتنا، وإذا كانت هذه الفكرة تبدو غامضة بطريقة ما، فأنا أستطيع أن ألفت نظركم إلى مثال أكثر وضوحاً..

إن الجسد المريض لا يعني قط أن (كل خلية) فيه مصابة بالمرض بل يعني دائماً أن عدداً كافياً من خلاياه قد تعرضت للإصابة، والخلية المريضة نفسها لا تعني بدورها أنها (خلية عاطلة) بل تعني في الواقع أنها خلية نشطة في الاتجاه الخاطىء. ذلك بالضبط ما يحدث في تفهم مشكلة الجهل.

فالمجتمع الجاهل لا يحتاج إلى أن يضم المواطنين الجهلاء فقط ولكنه يحتاج إلى أن يضم منهم عدداً كافياً لكي يتعرض للمرض، والمواطن الجاهل لا يعني أنه (المواطن غير الفعال) بل يعني المواطن الفعال في الاتجاه الخاطىء كما تنشط خلية السرطان في تحقيق مزيد من المرض، إن الصحة العقلية هي المقياس الوحيد المعتمد في

Twitter: @alqareah

تقدير هذه المشكلة، كما أن الصحة الجسدية هي المقياس الوحيد المعتمد في تقدير مدى المرض، فالطبيب لا يستطيع أن يعتبرك مريضاً حتى تشلك حالتك الصحية عن ممارسة نشاطك المطلوب، والدارس المعاصر لا يعتبرك جاهلاً أيضاً إلا إذا اكتشف أن مستوياتك العقلية عاجزة عن مساعدتك في ممارسة ذلك النشاط.

إن تعريف الجهل باعتباره نقيضاً للمعرفة موضة قديمة انتهى أمرها كما انتهى أمر (النطاسين) الذين تعودوا أن يعتبروا المرض علامة على غضب اله الرعد، فالواقع أن كلمة المعرفة ليست فقط أسطورة رديئة مثل أسطورة إله الرعد نفسه، بل أيضاً انها لعبة خادعة تشدك بعيداً عن الاتجاه الصحيح.

فليس ثمة شيء مجرد اسمه المعرفة كما أنه ليس ثمة شيء مجرد اسمه الصحة، إن كل ما نملكه في عالمنا حالات متباينة لأنواع من المعرفة وأنواع من الصحة التي نقيسها دائماً بمقياس واحد اسمه الحياة الأكثر فعالية أو الحياة الأقل فعالية، ونحن ننطلق من هذه النقطة وحدها في تعرية شخصية المواطن الجاهل، وننطلق منها أيضاً في تفهم شكل مجتمعه موقنين بثقة من أن الظاهرة ـ مثل ظاهرة الرعد بالضبط ـ ليست مستعصية على الفهم إلى حد يتطلب البحث عن أسطورة إله الرعد النحاسي، إننا نعرف طريقاً أقرب للوصول إلى الحل.

هذا الطريق يبدأ في الواقع بمثابة حكاية نصف مشوقة، إنه يدعو إلى أن تتصور سفينة تبحر في وسط المحيط وتضم شعباً كاملاً بمثابة بحارة ويدعوك إلى أن تتابع أحداث الرحلة عن كثب ملتزماً جانب الحياد، إن أي مراقب مثلك سيرى تفاصيل الموقف في خمس نقاط محددة:

Twitter: @alqareah

النقطة الأولى أن السفينة قد تطفو فوق الماء بموجب قانون طبيعي لكنها تبحر في اتجاه الشرق أو الغرب بموجب إرادة البحارة، ذلك يعني أننا قد لا نملك فرصة في خلق حياتنا لكننا نملك كل شيء فيما يخص قيادتها وإذا خطر لنا أن ندير دفتها في اتجاه الرف المرجاني فإننا غالباً نستطيع أن نغرقها ونغرق معها.

النقطة الثانية أن السفينة لن تبحر في الاتجاه الأقرب إلى الهدف بل ستبحر في الاتجاه الذي يعتقد البحارة أنه أقرب إلى الهدف، وإذا كان البحارة - مثل كولمبس مثلاً - لا يعرفون خطة السير بالضبط فإنهم عادة يخسرون كثيراً من وقتهم في الدوران والانحناء.

النقطة الثالثة أن سرعة السفينة لن تبدو عالية أو بطيئة إلا بالنسبة لمن يراقبها من الخارج واضعاً في ذهنه مسافة الطريق والمعدل المطلوب للسرعة، أما بالنسبة لأهل المركب الذين لا يملكون نفس المعلومات فإن المشكلة بأسرها لا داعي لها، إن المركب تسير، وتسير أيضاً في الاتجاه المتفق عليه وكل شبر تتركه وراءها يعتبر (تقدماً) ذلك كل ما في الأمر.

النقطة الرابعة أن قدرة السفينة على مواجهة متاعب الرحلة لا تتوقف فقط على متانة بنائها بل أيضاً على نوع الحلول التي يختارها البحارة. إن مجموعة من الرجال عديمي المعرفة بسلوك البحر يستطيعون أن يتسببوا في إغراق مركبهم أكثر مما يتسبب في إغراقه طوربيد.

النقطة الخامسة أن جهة الوصول لا تعني بالضرورة أنها الهدف النهائي الذي لا تستطيع السفينة أن تصل إلى هدف سواه بل تعني فقط أنها الجهة التي يعتقد البحارة لسبب أو لآخر أنها تكفي بالنسبة لهم.

Twitter: @alqareah

هذا المثال البسيط مجرد شكل مصغر لما يحدث في الواقع على مستوى المجتمع القوي أو المجتمع الإنساني بأسره، إن عالمنا حصيلة مجموع أفراده، ومعارفنا حصيلة مجموع معارف الأفراد، ومركبنا يسير طبقاً لخطتنا المتفق عليها، والرحلة تبدو مضنية أو مبهجة طبقاً لطبيعة خطتنا قبل أي شيء آخر، لذا فإنها عادة لا تبدو مضنية أو مبهجة بالنسبة لنا بل بالنسبة لمن يراقبها من الخارج.

إن التطبيق العملي لهذه الحكاية الصغيرة يبدو على أرضية الواقع أكثر وضوحاً وقدرة على شرح مشاكلنا من الداخل، فأنت لا بد أن ترى هنا انك لا تستطيع اعتبار أية مشكلة نعانيها في مجتمعنا مجرد نتيجة حمقاء لسلوك واحد منا لأن ذلك الواحد بدوره مجرد نتيجة أخرى حمقاء، إن المركب لا تغرق لأن بحاراً واحداً يرغب في إغراقها بل لأن بقية البحارة مستعدون لقبول فكرته الخاطئة باعتبارها (غاية الصواب) فإذا كان بوسعك أن تلتزم جانب التواضع إلى هذا الحد وتعترف لنفسك بأن الفرد وحده لا يستطيع في الواقع أن يحدث مشكلة أو يحل مشكلة دون وجود الاستعداد الطبيعي داخل الكتلة، فسوف ترى في نهاية المطاف أن متاعب الجهل التي تعانيها معظم الشعوب النامية لا تبدأ من الأفراد الجهلاء أو المثقفين بل تبدأ بمستوى (الصواب) المعترف به داخل المجموعة، إن القرآن ينعت أهل مكة قبل الإسلام بالجهل ويدعوهم أيضاً باسم الجاهلية رغم أن نسبة التعليم بينهم كانت تزيد عن نسبة التعليم في مجتمع المسلمين لأن المقياس لا علاقة له بعدد العارفين وغير العارفين بل بنصيب المعرفة نفسها من الحق والصواب، ولأن النبي الأمي كان دليلاً قائماً بذاته على أن المشكلة لا تخص القراءة والكتابة من بعيد أو قريب. المشكلة تخص مستوى الصحة العقلية التي تتوقف بدورها على حالة الخلايا ونوع أمراضها ومدى إصابتها

Twitter: @alqareah

بالضبط، والمرء يستطيع أن يبدي شكوكه في أية عملية جمع عادية لكن الأدلة سوف تغلبه دائماً لكي يقتنع في نهاية المطاف بأن عملية جمعنا البسيطة التي تقول إن مستوى الصحة العقلية في المجتمع حصيلة مجموعة معارف الأفراد نتيجة غير قابلة للطعن، إن كل إناء ينضح بما فيه.

واللعبة بعد ذلك مريحة وخالية من الغموض، إن المجتمع الجاهل ليس فقط، مجموعة أفراد جاهلين بل مجموعة أفكار غير فعالة ومجموعة حقائق نسبية قد لا تخلو من الزيف، ومجموعة غير محدودة من الأخطاء التي لا تبدو بمثابة أخطاء إلا لمن يراقبها من الخارج، إنه صورة (مكبرة جداً) لرجل جاهل واحد يقود مركبه في وسط المحيط.

علاماته التجارية هي نفس العلامات القديمة التي يلصقها الرجل على جميع منتجاته ومشاكله بالطبع هي نفس المشاكل لكنها (مكبرة) بضعة ملايين من المرات.

العلامة الأولى أن المجتمع الجاهل أيضاً يعرف الصواب عن كل شيء ويملك حلولاً جاهزة لكل المشاكل، لكنه لا يقيس معارفه وحلوله طبقاً لمناهج المنطق بل طبقاً لمنهج التاريخ، إن ما حدث في الماضي هو الصواب، وما يحدث في الحاضر هو الخطأ، لذا فقد كانت حجة أهل مكة ضد الإسلام أنهم لا يستطيعون قبول فكرة تدعوهم للكف عن عبادة (آبائهم الأولين) فقيمة أصنامهم ليست مستمدة من (شكلها المنطقي) بل من امتدادها في الماضي إلى الوراء.

العلامة الثانية المجتمع الجاهل أيضاً يضع نفسه في مركز الأرض ويترك العالم يدور حوله مربوط العينين مثل ثور الساقية. إن هذه

Twitter: @alqareah

الصفة الحافلة بالغرور والنزق تمثلت بوضوح صاعق في شكل الفكر الذي أنتجه المجتمع اليهودي في أكثر عصوره انحطاطاً وإيغالاً في الجهل، لقد وصل الأمر إذ ذاك إلى أن اعتبر الاحبار البسطاء مجتمعهم البسيط بمثابة «شعب الله المختار» فيما ظل بقية العالم بالنسبة لهم مجرد همج وغرباء. تلك الخارقة المثيرة للضحك التي لم يعان منها أحد قدر ما عانى منها (شعب الله المختار) نفسه!

العلامة الثالثة المجتمع الجاهل لا يتعامل بعملة المنطق بل بعملة الشعر، إنه لا يملك أفكاراً معروضة للنقاش لأن كل فكرة في حوزته مقدسة أو شبه مقدسة أو ربع مقدسة على الأقل، ولأن هذا النوع من الفكر التليد ليس معروضاً للنقاش بل للطاعة فقط، إن مجتمعات الزنوج والأسكيمو هي بالضبط أقل المجتمعات الإنسانية قبولاً لوسائل النقاش والجدل، وهي بالذات أكثرها حاجة للبحث عن حلول عاجلة.

العلامة الرابعة المجتمع الجاهل ظاهرة مريضة وليس مجرد ظاهرة مختلفة، لذا فإن التعامل معه يبدو غالباً لعبة قاسية وأحياناً أيضاً لعبة مميتة، لقد مات كثير من الرجال العظام على صلبان مجتمعاتهم البدائية لأنهم لم يدركوا الحد النهائي الذي يتوقفون عنده في آداء لعبتهم معه وسوف يموت كثير من الرجال العظام على مزيد من الصلبان حتى يتعلم المجتمع الإنساني أن يكبح جماح عصبيته وعقده النفسية ويرفض أن تجره أمراضه إلى ارتكاب جرائم الصلب، إن حفنة من الأحبار استطاعوا أن يغروا الشعب اليهودي بقتل المسيح، وحفنة أخرى من رعاة مكة استطاعوا أن يؤلبوا معظم قبائل الجزيرة العربية ضد النبي محمد لكن رد الفعل عند الرسولين العظيمين لم يزد قط عن هذا الدعاء الحافل بالشفقة (ربي اغفر

Twitter: @alqareah

لقومي فإنهم لا يعلمون) إنك لا تستطيع أن تعاقبه بأكثر من العمل على شفائه العاجل، ذلك وحده هو العقاب الحقيقي.

Twitter: @alqareah

4

الجهل «معرفة» غير صالحة

طوال النقاش السابق كنت أحاول هنا أن أحدد معالم المفهوم المعاصر بالنسبة لمشاكل الشعوب النامية المتمثلة في خانة الجهل. كانت المحاولة ملتزمة بنقاش المشكلة داخل حدود عامة خالية من التفاصيل والأمثلة الخاصة، وكنت أعمل بطريق العمد على تجنب مشكلتنا في ليبيا بالذات لكي لا يبدو هذا الحديث بمثابة مناورة للبحث عن مثال مصنوع على المقاس.

إن ليبيا لا تعاني وحدها من المشكلة، ولا تعاني منها الشعوب النامية فقط. بل إن العالم كله ـ بشعوبه السعيدة العارية وشعوبه المكتئبة المغطاة بالجربى ـ يواجه عاهة الجهل بقدر أو بآخر. إننا لا نملك شعباً متعلماً في أي مكان ما دام التعليم يعني لدينا القضاء على أمراض الجهل. كل ما نملكه مجرد مجتمعات تحسن القراءة ومجتمعات أخرى لا تحسنها، ولكنها جميعاً تعاني من المرض بنسب متفاوتة.

إن الجهل لا يعني لدينا شيئاً سوى أنه (معرفة) غير صالحة.. والمواطن الليبي ـ باعتباره مواطناً مسلماً ـ يستطيع أن يفهم هذه

Twitter: @alqareah

الحقيقة بصورة أفضل إذا تذكر هنا أن القرآن أيضاً يستعمل اصطلاح الجهل بمفهومه المعاصر وحده.

إنه لا يدعو أهل مكة باسم (الجاهلية) لأنهم لا يعرفون القراءة، فالواقع أن النبي نفسه كان لا يعرف القراءة، ولا يدعوهم بذلك الاسم لأنهم لا يعرفون شيئاً عن منحة العبادة، بل لأنهم كانوا يعرفون (الفكرة الخاطئة) فقط، ولأن ذلك بالضبط هو (الجهل) في صورته الحقيقية.

إن العجز عن (قراءة الحروف) يدعى في اللغة باسم الأمية وهي ظاهرة لا علاقة لها بالجهل رغم أنها تولد أحياناً بمثابة نتيجة مباشرة لتفشي هذا المرض في البيئة. القراءة قدرة ميكانيكية مكتسبة وليست نشاطاً عقلياً من أي نوع والعجز عن القراءة مجرد افتقار إلى قدرة ميكانيكية وليس افتقار إلى نشاط عقلي من أي نوع أيضاً. إن القراءة (كلام مدرب) والفرق بين المواطن القادر على فهم الرموز مباشرة وبين المواطن الذي يحتاج إلى السماع مجرد فرق في الوسيلة وحدها. إننا لا بد أن نعود أنفسنا على احتمال هذه الحقيقة المثيرة لكي نتعرف على طبيعة مشاكلنا ونكتشف أعراض المرض وراء القناع. فالجهل لا يفقد أظافره بمجرد أن يتعلم المرء كيف يلوي لسانه باللغة الفصحى ويتسكع في الشوارع متأبطاً كتبه المهيبة المظهر. الجهل حالة عقلية خاصة لا يمكن استبدالها إلا بحالة عقلية أخرى.

وأنا ألح في تكرار هذه النقطة هنا لأنني أتمنى أن ألفت نظر مواطننا إلى الخطأ الفادح الذي يمكن أن يحدث في بلدنا إذا أصرت مناهجنا الفكرية على لعبة الخانات الثلاث وتقسيمات الفقر والمرض والجهل وتفتيت المشكلة القبيحة بطريقة تخفي معالمها وراء

Twitter: @alqareah

مجموعة من الأقنعة.. إننا لا بد أن نتجنب هذا المنهج الرديء ونلتزم بمنطق الواقع.

فالفقر ليس طابع بريد تلصقه فوق باب بيتكم فتصبح مواطناً فقيراً مسجلاً في قسم الفقراء.. إنه موقف اقتصادي معين بالنسبة (لضروريات) الحياة العادية. موقف نسبي يختلف من مكان إلى آخر، ويستحيل تحديده عند رقم خاص، ولا يمكن تقرير طبيعته إلا بالنسبة لظروف الحياة وحدها. إن المواطن الليبي لا يدخل في عداد الفقراء إذا بلغ راتبه حد السبعين جنيهاً، ولكن المواطن الكندي الذي يتقاضى هذا المبلغ في بلده يستطيع أن يموت بالجوع.

الجهل أيضاً.. ليس طابع بريد.. إنه موقف عقلي عام بالنسبة (لضروريات) الحياة العادية. موقف يختلف من مكان إلى آخر، ويستحيل تحديده بصفة معينة واحدة، ولا يمكن تقرير طبيعته إلا بالنسبة لمفهومنا عن الحياة، إننا نستعمل المقياس الخاطىء في تشخيص المرض عندما نقصر أعراضه على ظاهرة القراءة والكتابة. وعندما يخطىء الطبيب في التشخيص فإنه عادة لا يصف الدواء الخاطىء فحسب بل انه أيضاً قد يصف الدواء المميت..

لقد عملت طوال النقاش السابق على تقرير هذه النقطة بالذات في أكثر من موضع لأن دراسة المشكلة ستتجه دائماً في الاتجاه الخاطىء حتى تتضح لدينا (أعراض المرض) الحقيقية وليس قناعه الخارجي وحده وحتى تتغير مقاييسنا لمفهوم الجهل في بلدنا..

إن ليبيا لا تعاني من مشكلة الجهل لأن معظم مواطنينا لا يعرفون القراءة بل لأن معظم مواطنينا ـ سواء يعرفون القراءة أو لا يعرفونها ـ يمتلكون أكثر مما يجب من (الأفكار الخاطئة).. إننا نعيش موقفاً فكرياً مليئاً بالتناقض والفجوات، ونعتبر تناقضاتنا

Twitter: @alqareah

شكلاً محدداً لطبيعة تخلفنا متناسين أنها في الدرجة الأولى, مجرد معالم خارجية لشكل البناء نفسه.. إننا لا يجوز أن نحس بالحرج من متابعة هذه الحقيقة بالتفصيل.

فالفرد الليبي يتناقض مع مجتمعه ـ إذا كنا معترفين بوجود التناقض ـ لأنه ينطلق من فكرة مؤداها أنه بالذات (مركز العالم)، وان الدنيا تدور حوله.. لكن مجتمعه يتناقض معه أيضاً لأنه بدوره يعتبر نفسه مركز الأرض.. إن أعراض الجهل واحدة بالنسبة للفرد وبالنسبة لمجتمعه.. كلاهما عالم بذاته. كلاهما على صواب دائماً. كلاهما أناني وجاهز الخطط وعارف بكل شيء. كلاهما يعتقد أنه يسير في طريق الخير والسعادة. واللعبة تمضي غالباً على ما يرام ما دامت مصلحة هذين النقيضين تجمعهما معاً في نقطة واحدة لكنه إذا اختلفت مصلحتهما بطريقة ما فإنهما لا يجلسان معاً لنقاش طبيعة الاختلاف وتقرير شكل الخطأ والصواب، بل يدخلان فوراً في الصدام، فيحقق الفرد مصلحته في الخفاء عن (أعين المجتمع) أو تكتشفه (أعين المجتمع) وتشنقه على باب المدينة. وأسوأ ما في الأمر أن (تحقيق المصالح في الخفاء) لا بد أن يدعو بالطبع إلى نوع من النفاق الاجتماعي الذي ينتهي عادة بأن يرتكب كل فرد في المجتمع نفس الرذائل في الخفاء ويطالب بشنق من يرتكبها علناً. وإذ ذاك تصبح أمراض مجتمعاتنا أصدقاء سريين.

إنها أعظم ملامح الجهل على الإطلاق..

وأسوأ نتائجه وأكثرها قدرة على خلق المشاكل وتفتيت الروابط الاجتماعية الحقيقية وإيقاد نار الفتنة بين الفرد والمجتمع من جهة وبين أفراد المجتمع أنفسهم من جهة أخرى. إن التناقض بين الفرد وبين المجموعة مؤشر سليم يقف دائماً عند الدرجة التي تشير إلى

Twitter: @alqareah

مستوى الجهل أو مستوى المعرفة داخل المجتمع، ولذا فقد كانت أعظم صفات المجتمع المسلم في المدينة أنه يقف (كالبنيان المرصوص)، بمثابة نقيض للمجتمع الجاهل في مكة.

لكن حكاية المؤشر ليست مجرد حكاية مفتوحة يرويها من يشاء.. إنها مقياس علمي محدد ومتفق عليه في الدراسات المعاصرة أكثر مما يتفق باعة الأقمشة على طول المتر. ذلك يعني أننا قد نجد مجتمعات كاملة خالية من ظواهر التناقض لأنها تحسن (كبته) بطريق العنف أو لأنها مجتمعات غوغائية خالية من النشاط الفكري، لكننا لا نعتبرها مقياساً يستحق الذكر. إننا نحتاج دائماً إلى شرط الإقناع الفكري. فالمجتمع يلعب غالباً دور الوالدين بالنسبة للفرد. إنه يعوله ويضمن له لقمة عيشه في أمان ويرشده إلى طريق الصواب ويدافع عنه ضد أعدائه في الخارج لكنه لا يستطيع أن يؤدي شيئاً من هذه المهام المعقدة إذا لم يلتزم بمناهج الإقناع العقلي. إنه إذ ذاك يتسبب في إلحاق الضرر بالفرد أكثر مما ينفعه.

فالأب الذي يختار العصا لتربية أطفاله يستطيع أن يحافظ على شكل العائلة وسمعتها لكنه بالتأكيد لن يحافظ على رباط المصلحة في داخلها ولن يتمكن من انقاذها أيضاً عندما يكبر أطفاله ويصيرون أطول من العصا. إن المجتمع يواجه نفس الموقف بصورة مكبرة بضعة ملايين من المرات.. والدراسة المعاصرة لا تختار هذا التشبيه لمجرد الرغبة في ضرب الأمثلة بل لأن البيت والمجتمع ظاهرة واحدة لا يختلفان في شيء سوى الحجم وحده.

إننا سنرى المشكلة من زاويتها الصحيحة إذا اعتبرنا مجتمعنا في ليبيا بمثابة (أب) لكل مواطن منا. إذ ذاك سنكتشف أننا مطالبون بنقاش (عقلية) هذا الأب وفهمه لطبيعة التربية الصحيحة وتقدير

Twitter: @alqareah

أخطائه تقديراً خالياً من الحرج والعنف أو النفاق. إننا لا بد أن (نتعرف) على عقلية الأب لكي نزيد فعاليته بالنسبة لأفراد الأسرة ونشرح له أخطاءه تجاههم وننقذهم من شره الناجم عن نقص المعرفة وليس مما يجدينا أن نلوح دائماً بالراية البيضاء ونمتدح كل ما يفعله ونتخذه مقياساً لإصدار الحكم على جميع أفراد الأسرة..

إننا نواجه مشكلة عائلية عادية على نطاق أكبر من حجم عائلة واحدة. ونملك (أباً) متميزاً عن سواه بأنواع من المعارف والمستويات العقلية والمثل والمناهج. ومهمتنا بالضبط أن نساعد هذا الأب على تجنب الصدام مع كل فرد في أسرته، لكننا سنؤدي المهمة بطريقة خاطئة إذا بدأنا بدعوته إلى وسائل الكبت أو أنحزنا إلى جانبه لأنه (رأس الأسرة) أو أنحزنا إلى جانب نقيضه داخل الأسرة لأنه (إنسان حر في رأيه).

إن المواقف الثلاثة معاً أخطاء مميتة.

وحلول مؤقتة لن تساعد قط على إلغاء التناقض بقدر ما تساعد على شحنه بمزيد من التناقض الأكثر عمقاً. والحل الحقيقي لا يتمثل في أي واحد منها. إنه يتجه في اتجاه مختلف كلية ويدرس ظاهرة التناقض بين الأب وبين أفراد أسرته باعتبارها(خلافاً في زاوية الرؤية) ويقيسها ملتزماً بمقياس (الحياة الأكثر فعالية) فإذا أثبت الأب أنه يملك وجهة نظر أفضل فإن الفرد عادة لا بد أن يقتنع، وإذا أثبت الفرد أنه يملك وجهة نظر أفضل ـ مهما بدت غريبة ـ فإنه أيضاً من حقه أن يتوقع اقتناع الآخرين.. الحل عادل وشجاع إلى هذا الحد.

لكنه ـ للأسف ـ يمكن اتهامه بالمثالية في يسر.. فمعظم الناس يتصورون أن وسائل النقاش المنطقي لا تستطيع أن تقرر (الصواب)

Twitter: @alqareah

دائماً، ومعظم الناس يتصورون أن النقاش يعني (الكلام) الذي لا يلتزم بالمنطق بل بالفصاحة وحدها. والمرء قد يحس بالذعر عندما يعرف فجأة أن هذا التصور بالذات ناجم عن مشكلة الجهل التي يزمع أن يبحث لها عن حل وأن المشكلة ـ على أي حال ـ لا تملك حلاً آخر سوى النقاش.

إن الخطوة الأولى في علاج جهلنا لا تستطيع أن تبدأ مجرد البداية قبل أن نؤمن جميعاً ـ ونقتنع جميعاً ـ بأن النقاش قادر على إيجاد الحل وقادر على إيجاد الصواب وإنه ليس فصاحة في البيان وأشعاراً وأنصاف حقائق وبديهيات مزيفة بل علماً حاداً أكثر من السكين ومنطقاً لا يقل عن منطق الجمع والطرح في الأعداد.

وبمقدار قدرتنا على تحقيق هذه الخطوة في بلدنا سوف تتحدد معالم مشكلة الجهل عندنا وتخسر أكثر من نصف سمومها خلال وقت أقصر مما يتصور معظم الناس. إن الإيمان بالنقاش قادر على حل مشاكل الجهل لأنه يجرده من أسلحته المسجلة باسمه فالرجل الجاهل بمجرد أن يقبل تبادل الرأي مع غيره يفقد خاصية الجهل. ذلك لا يحدث لأنه يصبح عارفاً في غمضة عين بل لأنه يفقد العلامات الحقيقية لشكل المرض.

إنه لا يستطيع أن يتقبل النقاش إلا إذا تخلى عن (ثقته المطلقة المغلوطة) وتخلى عن مكانه في مركز العالم وتخلى عن متحفه وأنانيته وغروره الذي تعود أن يخدعه (بشبح الصواب)، واختار لنفسه مكاناً عادياً في حلقة المتكلمين ونقل لهم رأيه وسمع منهم آراءهم. إن هذا المواطن لم يعد جاهلاً طبقاً لأية مقاييس حتى إذا كان لا يعرف القراءة إنه مواطن جاهز لتقبل منحة المعرفة مثل طفل حديث الولادة وليس ثمة لغة في الدنيا تصف الطفل بصفة الجهل.

Twitter: @alqareah

هذا نصف الطريق إلى الخلاص من المرض. والنصف الباقي أن نلتقي جميعاً عند تعريف واضح لما تعنيه كلمة (الصواب) لأن كل طرف في النقاش يعتبر نفسه على صواب وكل طرف في النقاش يملك هذا الحق أيضاً ونحن لا نستطيع أن نلزمه بالصمت إذا كنا نريد حقاً أن نلغي نقطة التناقض. إننا لا بد أن (نكتشف) له الصواب طبقاً لمقياس متفق عليه، مقياس يستمد شكله من طبيعة حياتنا وحياته.. من طبيعة مستقبلنا ومستقبله.. من ظاهرة الحياة كما تبدو الحياة حقاً وليس كما نشتهي أن نراها من زاويتنا الخاصة.

هنا يصل السؤال الذي ظللت أمهد له طوال هذا النقاش. إن اعتبارنا للحياة بمثابة مقياس نهائي لا يعني في الواقع أننا سنتفق دائماً على نتائج قياسنا. فالشوط الأول المطلوب لكي يتفق بائع الأرض مع المشتري أنهما معاً متفقان على طول المتر فهل نستطيع نحن ـ في مجتمعنا شبه الأمي ـ أن نحقق هذه المعجزة بالنسبة لمفهومنا للحياة.

هل تستطيع كلمة (الحياة) الغامضة والمعقدة أن تبدو واضحة لجميع المواطنين الليبيين كما تبدو كلمة المتر أو رطل البصل.. أنا أتمنى أن لا تبدو الإجابة مفاجئة جداً إذا قلت هنا أن مواطنينا في ليبيا قد يحسنون اختلاق الأعذار لكي يختلفوا على أي شيء لكنهم لا يملكون فرصة واحدة لتحقيق الخلاف على مفهوم ظاهرة الحياة.

إن الجهل لم يحقق هذه الكارثة في أي مكان ولم يحققها في ليبيا أيضاً.

Twitter: @alqareah

5

وقلت هنا إن جهلنا لم يكن قط عائقاً أمام مواطننا لكي يفهم ظاهرة الحياة فهماً سليماً ومجدياً. سواء كان هذا المواطن ممن يعيشون في ليبيا الآن أو من الذين عاشوا فيها بعد خروجهم من الجنة.. إن علامة الحي هي أنه (يحب) الحياة، وليس من المعقول أن نفترض بعد ذلك أن المرء يحب شيئاً ويكره أن يفعل من أجله الخير.

إننا لا نحتاج إلى أن نزيد مشكلتنا تعقيداً.

ولا نحتاج إلى تزييف المنطق البسيط بأوهام الشعر والفلسفة.. كل ما يعوزنا حقاً أن نلتزم بواقعنا ونتقبل حب الناس لحياتهم باعتباره عمل ناجم عن حب الخير نفسه وليس مجرد (أنانية) خرقاء.. إن ذلك أيضاً ما يحدث على أرضية الواقع.

فالمواطن لا يحب الخير لحياته لأنه (يتمنى) الشر للآخرين أو لأنه مخلوق أناني يلهث وراء منفعته الشخصية فقط بل لأن الحياة نفسها جزء من هذا الحب. إننا لا نستطيع أن نحرمه من طبيعته

Twitter: @alqareah

كمخلوق حتى إذا كنا نرغب حقاً في مساعدته على تجنب المزلق الرديء إلى حضيض (الأنانية) لأن المشكلة تبدأ بالضبط عندما يبدأ المجتمع في ارتكاب هذا الخطأ.

عندما يجعل مجتمعنا (حب الحياة) جريمة موجبة للعقاب.. عندما يكتشف الفرد أن (إخوته المواطنين) يجعلون حياته جحيماً لا يطاق باسم (المصلحة العامة)، عندما يقاس الصواب والخطأ (بعدد الأتباع) وليس بمنطق الحق عندما تصير الحياة بدلة جاهزة عليك أن تلبسها وحدها أو تعتبر مواطناً يرتكب مخالفة العري.. إذ ذاك ينزلق حب الحياة البريء إلى فخ الأنانية ويكتشف المواطن أن عليه أن يخرج من جلده أو يقاتل (أعداءه) في الخفاء.. ذلك يحدث في بلدنا.

إننا نملك مجتمعاً يحمل كل سمات المجتمع الجاهل. عالم صغير قائم بذاته يتسكع في خليط من العصور التي مرت بين خلق الأرض وبين الهبوط على القمر.. دنيا من الأزياء والثقافات والأفكار والأذواق التي لا تخص ليبيا بقدر ما تخص تاريخ الإنسان الحضاري والثقافي بأسره.

هذا المجتمع يجهل معظم أفراده القراءة والكتابة لكننا لا نعتبره مجتمعاً جاهلاً لهذا السبب، بل لأنه يحمل فوق وجهه كل علامات المرض الحقيقية التي تتمثل بالذات في اعتباره لكل فرد على حدة صفراً على الشمال..

إنه من علامات الجهل المميزة أن يعتبر المرء كل شيء يختلف عنه بدعة خرقاء..

مجتمعنا في ليبيا يملك هذه الصفة.. ويملك علاجاً جاهزاً لكل مشكلة تخطر ببال الشيطان، ويعرف الصواب عن كل شيء..

Twitter: @alqareah

أعني ليس فيما يخص حياة الإنس فقط بل فيما يخص الموت وسكان العالم السفلي أيضاً ويعرف الطريق إلى الجنة ويعرض معارفه على الرصيف لكي ينال منها المواطن حاجته بمثابة جائزة على مولده في ليبيا، ويحمل ساطوراً في جميع أزقتنا الممتدة بين الجغبوب وبين سوق الجمعة ويقطع رأس المواطن الذي يتجرأ على رفض الجائزة.

مجتمعنا في ليبيا يملك هذه الصفات.

ويعيش في عصر ما بين سقوط طروادة وبين سقوط الجولان، ويعرف نصيبه من مناهج الفكر المعاصر ويعرف نصيبه من مناهج السلطان عبد الحميد ويحترم المرأة في بيت، ويعاملها بمثابة بقرة في بيت آخر. ويعرف الله في بيت، ويعبده بمثابة (إله) ليبي في بيت آخر، ويوزع مناهجه مثل أعمدة التلغراف على طول الطريق الممتد من طرابلس إلى طرابلس مرة أخرى دوراناً حول الأرض.

إذا تعارفنا على أبعاد هذه الصورة العريضة لمجتمعنا فسوف نتفق فوراً على أن ظاهرة (التناقض الاجتماعي) بين مستويات شعبنا ليست في الواقع مرضاً بل نتيجة للمرض الحقيقي المتمثل في شكل مناهجنا.. إن التناقض عندنا (ضرورة) حياتية حتى تتفاعل مناهجنا المختلفة في شكل واحد.. لكن المشكلة بالضبط أن مجتمعنا لا يسمح بإبداء التناقض أو نقاشه، وهو بذلك يعطل عملية التفاعل ويؤخر موعد الشفاء دون أن يساعد على إضعاف حدة المرض.

هذه النقطة تستحق العرض بالتفصيل. فالظاهرة الواضحة في مجتمعنا الليبي أنه مجتمع تتصارع بداخله كل الأفكار التي عرفها الإنسان في جميع عصوره لكنها عندنا تتصارع في عصر واحد وأحياناً أيضاً تحت سقف بيت واحد. إن الأب الليبي يعتنق أحياناً

Twitter: @alqareah

فكرة الفراعنة عن الأرض المسطحة التي يحملها الثور فوق قرنه فيما يتفرج ابنه على سطح القمر في الجريدة اليومية.. والأب الليبي يتبنى أحياناً أفكاراً محيرة عن وظيفة المرأة وطبيعة علاقتها مع الرجل وواجب الأولاد تجاه رب الأسرة وتجاه الله والجيران وشكل اللباس اللائق وطريقة الحديث ونوع السياسة المطلوبة تجاه إسرائيل والتفسير الصحيح للقرآن ومعاملة العدو والصديق والطريقة المثلى لزراعة المشمش.. الأب الليبي يعرف ذلك كله، وأولاده الليبيون يجلسون في المربوعة على بعد مترين منه ويعرفون بدورهم أن والدهم الفاضل (لا يعرف شيئاً).

هذا صدام المناهج في بلدنا في أكثر صوره وضوحاً..

هذه المعركة المألوفة التي تحدث في كل مكان، وتعيشها كل الشعوب المتعلمة وغير المتعلمة بنسبة أو بأخرى وتجري كل يوم على امتداد المنطقة التي يسكنها الناس. كل ما يجعلها تبدو سيئة عندنا أنها تحدث في الخفاء فقط.. إن الصدام بين المناهج ظاهرة طبيعية لا تختلف في شيء عن ظاهرة الميلاد والموت، والدراسة المعاصرة تعتبرها بمثابة المحرك الحقيقي وراء عجلة الثقافة الإنسانية بأسرها كما تعتبر الصراع على البقاء بمثابة المحرك الحقيقي لبواعث التطور الفسيولوجي الفرق الوحيد أن صدام المناهج يحدث دائماً في عصر واحد فيما يستغرق التطور الجسدي وقتاً أطول مما يسمح بالصراع.. إن السمكة الأولى التي عاشت خارج البحر وطورت لنفسها جناحين لكي تطير لم تتعرض للعقاب من بقية الأسماك، ولم يتهمها أحد بالخروج عن التقاليد ولم توضع فوق الصليب باعتبارها بدعة ضد خلق الله.. لقد فعلت ما كانت تعتقد أنه الصواب، وارتكبت كثيراً من الخطأ ودفعت الثمن بعنقها وحده

Twitter: @alqareah

وعندما وجدت (الصواب) في نهاية المطاف بدا الأمر مجرد مكافأة متوقعة. ذلك من المفروض أن يحدث في صراعنا الفكري أيضاً لكنه ـ للأسف ـ لا يستطيع أن يحدث.

إننا لا بد أن نتصارع حقاً وجهاً لوجه، في عصر واحد، تحت سقف بيت واحد وبلغة واحدة. ذلك بالضبط هو شرط المباراة الرئيسي، وإذا لم نقبل هذا الشرط فإن المباراة نفسها تعتبر ملغاة.

ومهمة هذا النقاش أن يقرر هنا أننا في ليبيا ما نزال مترددين في قبول الشرط المؤلم، وما نزال أيضاً نتظاهر بأننا نقبله حقاً. نحن لم نحزم رأينا بعد، وليس بوسعنا أن نحزمه ما دمنا نعتقد أن مشكلتنا يمكن حلها بإنشاء المدارس والانتظار.. ذلك يشبه بالضبط أن تدفن السمكة رأسها تحت الماء وتلد أسماكاً كل يوم وتحلم بأن تطور لنفسها جناحين.

إننا لا نحتاج إلى أن نكلف أنفسنا مشقة البحث عن الحلول. كل ما نحتاجه حقاً أن نترك الحياة تجري في مجراها الطبيعي دون أن تتبرع بين حين وآخر بإلقاء حجر أو حجرين لكي تفرض التغيير من الخارج. دعوا النهر يجد مجراه كما تفعل الأنهار الحقيقية بالضبط. هذا هو الدعاء البسيط الذي أعلنه المسيح ذات مرة وصلب من أجله بين اثنين من اللصوص لكنه ما يزال حتى الآن دعاء صائباً.

إننا في ليبيا لا نملك مشكلة اسمها الجهل، بل مشكلة أكثر قبحاً وأكثر تعقيداً اسمها صرامة الموقف العقلي السائد وإذا كان الاختلاف في الأسماء لا يبدو مهماً في معظم الأحيان فإنه هنا ـ هذه المرة ـ يبدو مهماً إلى حد الموت. لأن المرء يستطيع أن يصر

Twitter: @alqareah

على قتال الجهل بالمدارس لكنه لا يستطيع أن يقنع نفسه بأن المدارس ستحدث تغييراً في درجة الصرامة الفكرية السائدة أو لا تزيدها ثباتاً ويقيناً مزيفين.

مشكلتنا في مناهجنا الفكرية وحدها. في منطق الاقطاع الفكري الذي يعيشه المجتمع الليبي تحت قناع التقاليد الحميدة والوصايا السماوية ومجد أجدادنا ومكافحة التفسخ الحضاري والمحافظة على الأخلاق الكريمة وما إليها.. لأنه وراء هذا القناع تكمن أمراضنا، وتنتحل لنفسها صفة (القداسة والنبالة)، وتمارس على مواطنينا نوعاً من الدكتاتورية الرعناء، وتفرض منطقها بالإرهاب الاجتماعي وحده، وتخدعنا ببديهيات مزيفة لكي نوفر لها الحماية بأيدينا. ووراء هذا القناع تكمن مشكلة الجهل في بلدنا.

الجهل الذي يسمح لنفسه بالدفاع عن الله كأن الله يحتاج إلى من يدافع عنه.. الجهل الذي يفرض نفسه حارساً للخير كأن الخير يحتاج إلى حارس بعصاته.. الجهل الذي يضمن لنفسه البقاء بيننا لأنه عرف دائماً كيف يخدعنا عن طبيعته ويجعلنا نصدق أنه مصدر سعادتنا كما يبدو الإقطاعي المزري مصدر سعادة عبيده في المزرعة.

هذا السيد الذي يزعم لنفسه نبالة الأصل وكرم المحتد لا بد أن يتعلم التواضع.. لا بد أن نحرمه من غروره الخطر.. إن هذه الدعوة البسيطة لا تعني على الإطلاق قمع مواطن ليبي واحد أو منعه من الدفاع عن جهله بل تعني فقط أن يصبح النقاش نقاشاً حقيقياً وليس نوعاً من العقم الفكري الذي يدعوك إلى أن تلتزم الصمت وتفعل ما يقال لك أو تخسر فروة رأسك..

Twitter: @alqareah

إن ليبيا تحتاج إلى مدارس ولكنها تحتاج أكثر إلى حوار طويل ومتزن يتناول معظم (بديهياتنا) بالنقاش.. يتناول سلطة الرجل وسلطة الفقي وسلطة كبار السن، ويتناول تقاليدنا الحميدة وأفكارنا السياسية ومثلنا وأهدافنا وينقل إلينا وجهة نظر عصرنا، ويساعدنا على الخلاص من أخطائنا. إن هذا الحوار العظيم هو الذي يستطيع أن يحقق الثورة في أعلى صورها أصالة وفعالية.

لكنه ـ للأسف ـ لا يستطيع أن يبدأ مجرد البداية قبل أن نفتح أمامه الطريق بقوة القانون. ذلك يعني بأن نجعله واقعاً قانونياً ومعترفاً بشرعيته ولكي لا تبدو هذه الدعوة غامضة بأي حال، فأنا أفضل أن أعيد صياغتها مرة أخرى على هذا النحو.. إن مشكلة الجهل في بلدنا مشكلة حوار حقيقي، وحلها الوحيد أن نخلق المناخ الملائم للحوار وأن نرغم التناقض على الخروج من مكمنه الخفي إلى قاعات المحاضرات والصحف والإذاعة، وأن نضمن بقوة القانون أن الفكرة الأفضل هي التي تحتاجها بلدنا وليست الفكرة الأكثر اغراء أو قدماً أو بهرجة.

ذلك لا يمكن تحقيقه في قانون واحد ملحق بالمطبوعات. ولا يمكن تحقيقه أيضاً بوضع نص يخص حرية الحوار في الدستور، إنه يتحقق فقط عندما نبدأ في ممارسة نقاشنا على كل المستويات واضعين نصب أعيننا مقياساً واحداً غير قابل لسوء التفسير. مقياس يقول: نحن على الأرض وحلولنا لا بد أن تأتي من الأرض. وليس بوسع أحدنا أن يقنعنا بمنطقه إلا إذا أثبت لنا عقلياً أنه منطق الحياة حقاً وليس الحياة كما يراها من وجهة نظره فقط.

عندئذ يصير بوسعنا أن نقيس مناهجنا الفكرية ونقارن بينها ونحب أفضلها.. وعندئذ أيضاً توضع مشاكل جهلنا في الخانة

Twitter: @alqareah

الصحيحة وتنال منا العلاج الصحيح. إنها الخطوة الحقيقية التي ستبدأ بها طريق الألف ميل..

والخطوة التي سيبدأ بها أطفالكم مسيرتهم غداً في زحام هذا العالم المليء بالعدائين.

4 مارس 1971

Twitter: @alqareah

ثم نصبح إخوة

المواطن «س.ع.» يعتبرك أخاه.. يعزمك على العشاء كل ليلة ويفتح لك أبواب المربوعة ويدعوك بلقب «أخ». يقتسم معك سجائره ويروي لك حكايات مطولة عن رحلته إلى مالطة.. يقول لك كل شيء بالتفصيل من مغامرته مع مضيفة الطائرة في بداية الرحلة إلى خروجه من مالطة بيديه على رأسه.. أعني يفتح صدره ويحكي لك كل شيء لأنه يعتبرك أخاه..

ذات ليلة تصاب أنت بالملل..

تتعب من سماع الحكايات المكررة وتطلب من أخيك المواطن «س.ع.» أن يعفيك منها لوجه الله ثم تكتشف في اللحظة التالية أنك لم تخسر بهذه الحماقة سهرتك الليلية فحسب.. بل خسرت أيضاً أخاك المواطن إلى الأبد.. إنه سيعتبرك عدوه ابتداء من غد.

ينسى الأخوة..

ينسى لقب «أخ» الذي خلعه عليك متطوعاً ألف مرة ويطلب منك أن تغادر المربوعة لكي يدعو إليها «أخاً» جديداً في الليلة التالية ويضع جثتك أمامه ويشرحها له بكل ما يقدر عليه من ازدراء..

Twitter: @alqareah

سيقول له عنك حكايات مطولة.. ينعتك لديه بأسوأ النعوت ويفتح ذراعيه علامة الحيرة ويزعم أنه اعتبرك أخاه وأنك طعنته من الخلف.. فإذا حدث ذلك أرجو ألا تدع الحزن يعتريك..

أعني لا تعتقد أنك خسرت شيئاً يستحق الحزن.. فالمواطن «س.ع.» لم يكن أخاك حقاً في أي يوم أو في أية لحظة.. إنه لم يكن أخاك عندما دعاك للعشاء معه، ولم يكن أخاك عندما كان يقتسم معك سجائره ويدعوك بلقب «أخ». كل ما في الأمر أن هذا المواطن يحتاج إلى من يستمع إليه.. فإذا رفضت الاستماع أو أبديت بعض التعب من قصصه المعادة صار من حقه أن يعتبر الصفقة ملغية ويحل معك شركة «الأخوة».

هذا مفهوم التآخي عند معظم الناس.

نوع من الصفقات التجارية التي تعقد بين طرفين وينال كلاهما ربحاً معيناً إذا نجحت الصفقة ويصاب كلاهما بالخسارة إذا فشلت لسبب ما. أنت تنال «لقب أخ» وتجلس راضياً بهذا الشرف، وأخوك المواطن يجلس قبالتك ويفتح لك صدره بألف حكاية كل حكاية فيها امرأة وكل امرأة سقطت في حب أخيك المواطن.. كل حكاية فيها زجاجة نبيذ وكل زجاجة نبيذ سقطت في جوف أخيك المواطن. كل حكاية فيها عركة وكل عركة انتهت بانتصار أخيك المواطن.. العالم كله يقف متفرجاً فقط. لا أحد يفعل شيئاً. لا أحد يساوي شيئاً سوى أخيك المواطن.. أنت تستطيع أن ترى أن الصفقة ناجحة وأن أخاك المذكور أعلاه قد وضع لك لقب «أخ» بنفس النية التي يضع بها الصياد طعماً في صنارته، أعني لكي يصطادك ويحضرك معه إلى المربوعة ويأكل جثتك باسم مالطة، وأنت تستطيع أيضاً أن تعترف له بالشطارة في أداء هذه الخدعة

Twitter: @alqareah

المعقدة لكنه من المشكوك فيه أن يدفعك ذلك إلى أن تعتبره أخاك حقاً في أي يوم من الأيام.. فالأخوة لا يقيمون علاقاتهم على الصفقات التجارية..

ولا يحاول أحدهم أن يلعب دور الفتوة على حساب الآخرين ولا يلتقون لمجرد تبادل المنفعة.. الأخوة تعني في الدرجة الأولى أن كل مواطن مساو للآخر، وليس نسخة ثانية منه تتفق معه في كل التفاصيل.. إن ثقافتنا في ليبيا خاصة ـ وفي البلدان العربية عامة ـ ما تزال عاجزة عن إدراك هذه الحقيقة الأولية رغم كل ما يقال ويكتب عن الأخوة، فالمواطن في منطقتنا يفهم كلمة «أخ» فهماً شبه مقلوب.. إنه يعتبرك أخاه إذا اتفق معك فقط ويفصم رباط الأخوة بمجرد أن يكتشف أنك تختلف معه لسبب ما. إنه لا يعتبرك أخاه إلا لأنك نسخة طبق الأصل من حضرته، فإذا أعلنت له ذات مرة أنك مخلوق مختلف فإن أول ما يدخره لك هو أن يطردك من حلقة أخوته إلى الأبد.

لأن الأخوة بالنسبة له هي التشابه فقط!..

التشابه في الملبس وفي العادات والتقاليد واللغة ولون الشعر والعينين. إن فكره البسيط لم يسعفه لكي يدرك أن التشابه وحده ليس دليلاً على الأخوة في عالم الإنسان أو في عالم الحيوان على حد سواء.

فالغربان تتشابه.. كل غراب يشبه الآخر ريشة بريشة.. كل غراب يتبنى نفس العادات ويأكل نفس الدود ويصدر نفس النعيق بمثابة لغة متعارف عليها. كل غراب يبدو نسخة طبق الأصل من الغراب الآخر ومع ذلك كله فإن هذا التشابه المذهل لا يجعل من الغربان أخوة بل أعداء وخصوماً.. الغراب يقتل أخاه لكي يظفر

Twitter: @alqareah

بعشه، يقف مستعداً لكي يفقأ عينه ويظفر بحصته من الدود.. التشابه المذهل لم يحل مشكلة الصراع في مجتمع الغربان ولم يحقق فيه روح الأخوة لأن الأخوة ليست في تحقيق التشابه بل في تحقيق الاختلاف بعيداً عن مشاعر العداء.

الأسماك أيضاً تتشابه.. البوري يشبه البوري مثل ظله بالضبط. يسبح معه في نفس المياه، يواجه مثله نفس الأعداء، يعيش مثله ويموت مثله في نفس المنطقة ومع ذلك كله فإن أفضل وجبة لدى سمك البوري هي رأس أخيه الذي يسبح بجانبه، لأن التشابه ليس ـ بالضرورة ـ علامة على روح التآخي وليس أيضاً ضماناً لها. إن الضمان الحقيقي للأخوة الحقيقية هو أن نختلف ـ عندما نختلف ـ دون أن يفقد أحد ما احترامه لأخيه. ذلك يعني أن نرتفع عن مستوى الحيوان.

أن نرفض الوقوف على السطح واعتبار علاقاتنا صفقات تجارية عادية تبدو فيها روح الأخوة في حالة الربح وحده وتنقرض هذه الروح بمجرد أن نختلف في نقطة ما لأن ذلك في الواقع لا يزيد عن مستوى أخوة العجول التي يقال عنها أنها لا تجتمع إلا لكي يلعق أحدها الآخر بلسانه. فإذا رفض عجل ما أن يلعق مواطنيه فإن عليه أن يخرج من الحظيرة أو يستعد للنطاح حتى الموت.

هذه ليست أخوة..

هذه صفقة تجارية، عقد البيع والشراء. والمجتمع الذي يغمض عينيه لكي يتجاهل هذه الحقيقة البسيطة مجتمع محكوم عليه بأن يعيش أسوأ أنواع الصراع بين أفراده باسم الأخوة بالذات. إننا على المستوى المحلي في بلدنا وعلى مستوى الوطن العربي بأسره مطالبون بمراعاة هذه النقطة لكي نحدد معنى أخوتنا.

Twitter: @alqareah

فالمواطن الذي يضع لك لقب «أخ» ـ كما يضع الصياد طعماً في صنارته ـ لمجرد أن يفرغ فيك عقده النفسية مواطن خطر لا يختلف في شيء عن أية قنبلة موقوتة تستعد لكي تنفجر في وجهك بمجرد أن تختلف معه. والمواطن الذي يفهم أخوته للآخرين بأنها تشابه في الزي واللغة وحب الفلفل قنبلة أخرى مستعدة لتمزيقك في اللحظة التي تكتشف فيها أنك تلبس زياً مختلفاً أو تطيل أظافرك نصف سنتيمتر عن المقاس المعمول به. والمواطن الذي لا يحس بأخوته تجاهك إلا إذا كنت قادراً على إرضائه بطريقة ما لا يعتبرك في الواقع سوى عبد في خدمته وسوف يطردك من الخدمة بمجرد أن تعجز ذات مرة عن حيازة رضاه. هذه ليست أخوة!

هذه صفقة تجارية..

لعبة تستطيع أن تؤدي إلى خلق مجتمع من الشطار وتستطيع أن تؤدي إلى خلق مجتمع من الغربان المتشابهة، كل مواطن فيه يشبه المواطن الآخر ريشة بريشة، وتستطيع أن تؤدي إلى خلق حظيرة محشوة بالعجول التي يلحس أحدها الآخر لكنها بالتأكيد ـ ومن هنا إلى الأبد ـ لن تؤدي إلى خلق مجتمع من الأخوة. إن الطريق ليس سهلاً إلى هذا الحد وليس من الممكن عبوره بتبادل لقب «أخ» على الشفاه فقط.

نحن نحتاج إلى فكر مختلف. نحتاج إلى مواجهة لكل مواطن على حدة لكي يسمع منا أننا لا نقبل أخوته إذا كان يعتبرها مجرد طعم على الصنارة ولا نتمنى أن يدعونا إخوته ما دام ـ في داخله ـ لا يريد منا شيئاً سوى أن نجلس صامتين موافقين، ونتركه يتكلم وحده.

Twitter: @alqareah

الأخوة احترام لنفسك وللآخرين. احترام لما تفعله أنت وما يفعله الآخرون. احترام لوجودك ووجود غيرك داخل نطاق محدد وواضح من شرعية المصلحة العامة، وليس من شرعية وجهة نظرك وحدك، وإذا كنت لا تستطيع أن تفهم هذه الحقيقة المسطحة فأنت في الواقع تستطيع أن تكون أي شيء بالنسبة لي ما عدا أن تكون أخي.

إننا معاً نستطيع أن نكون أي شيء ما عدا أن نكون إخوة. ذلك وحده أمر مستحيل لا يمكن تحقيقه ـ ولن يمكن تحقيقه أيضاً ـ إلا إذا تعلمنا أنت وأنا في وقت واحد أن نلتقي عند نقطة واضحة من الاحترام المتبادل وليس المنفعة المتبادلة. إذ ذاك فقط سأقبل وجودك كما أقبل وجودي، وأفهم خلافك معي كما أفهم خلافي معك وأغفره لك كما أغفره لنفسي. إذ ذاك فقط نرتفع عن مستوى أسماك البوري ونحقق مستوانا الإنساني ونتشابه ونختلف بدون عداء.. وإذ ذاك نصبح إخوة.

25 سبتمبر 1971

Twitter: @alqareah

خطوة في الاتجاه

أعظم فضائل هذا العصر
أن علماءه بشر مثلنا

معظم الناس يدعون هذا العصر باسم «عصر العلوم».

ومعظم الناس تعتريهم الدهشة عندما يقال لهم إن هذه التسمية بالذات ليست خاطئة فحسب بل إنها أيضاً مقلوبة رأساً على عقب. فعصر العلوم المهيب السمعة ليس هو الذي بدأ في القرن الماضي بل هو الذي انتهى في ذلك الوقت وانتهى معه إنسانه المغرور العالم بكل شيء. إن عصرنا الحالي يملك تسمية من نوع آخر.

فمنذ بضعة آلاف سنة بدأ الفكر الإنساني مسيرة طويلة حافلة بالمشاق امتدت من مصر القديمة إلى مدن الفيكنج نصف المتوحشين في القرون الوسطى. كانت رحلة حقيقية لا تختلف في شيء عن رحلات القوافل التي يقودها المرشدون عبر الصحراء.. كل ما في الأمر أن المرشدين هنا كانوا يدعون أنفسهم «علماء».

وكانوا يرتدون زياً خاصاً. وينتمون إلى طبقة اجتماعية خاصة ويقضون معظم أوقاتهم في التأمل والبحث عن أفضل الطرق وأقلها

Twitter: @alqareah

عناء بالنسبة لحمير القافلة. ولقد حقق هؤلاء الرجال كثيراً من المعجزات وفعلوا من أجلنا كثيراً من الأعمال الطيبة، لكن مشكلتهم أنهم لم يحققوا ذلك طبقاً لمنهج محدد بل بالصدفة وحدها، وأن الصدفة قادتهم أحياناً إلى أخطاء مميتة لا يمكن غفرانها.

كانوا يعرفون كل شيء بالتفصيل.

ويعرفون أن الأرض تقع في وسط الكون وتغطيها السماء المزدانة بالنجوم ويعمرها الإنسان الذي خلقه الله لكي يسود الأرض ويركب على ظهر البغال والجمال ويتسكع في أرض قبيلته ويطارد الفتيات على بئر الماء ريثما يجد بينهن امرأة تصلح لخدمته.

وكان العلماء يعرفون أيضاً إجابة محددة لكل سؤال ويقفون مستعدين للإفتاء في كل معضلة. إن إنساننا المعاصر لا يهضم هذا الادعاء الطائش، لكن الإنسان الذي عاش في «عصر العلوم» كان يعتبره في الواقع مجرد بديهية أولية. فالعالم يعلم كل شيء طبعاً، ويستطيع أن يمنحك إجابة مقنعة عن كل سؤال يخطر ببالك وإذا بدت إجابته أحياناً غير مقنعة فإنها على أي حال لن تبدو قط قابلة للنفي القاطع، إن سر المهنة أن تعطي دائماً إجابة «لا يمكن إثبات خطئها على الأقل».

هذا حدث في عصر العلوم!

وحدثت وراءه مجموعة من المشاكل المعقدة التي قادت في نهاية المطاف إلى كارثة فكرية كادت أن تتسبب في انهيار حضارتنا. لقد صار «العلم» حفنة من وجهات النظر، وسادته الآراء غير الموضوعية واضطر إلى أن يفرض نفسه بقوة السيف بعد أن بدأ يكتشف عجزه عن الإقناع، وبذلك سقط دون أن يدري في فخ

Twitter: @alqareah

الأسطورة الشعرية التي تلبس عادة جلباب قديس. لقد أصبح العلم زائراً غير بشري!

هنا، عند هذه النقطة المميتة، بدأ عصرنا الحالي، لقد وجد كل شيء جاهزاً أمامه، من وزن الأرض وطولها وعرضها إلى شكل السماء والكون وبداية الخلق وأسباب المرض والزكام والأسباب الكامنة وراء ظاهرة الإصابة بالعين. كان علماء عصر العلوم قد تركوا لنا ميراثاً فكرياً غير محدود، وكان أعظم ما في هذا الميراث أنه اعتبر نفسه دائماً «عصارة الحق وأغلى مقدساتنا وآخر كلمة في الموضوع» لكن المفارقة أن عصرنا الحالي بدأ - في الواقع - بوضع هذا الميراث على الرف.

لقد حدث ذلك لأول مرة في تاريخ الحضارة. فلم يسبق قط أن عرف العالم ظاهرة «الشك في عصارة الحق» ولم يسبق قط أن اعتبر أحد العلماء نفسه في حاجة إلى «أدلة» تجريبية. لقد كانت العادة أن يقبل الناس ما يقوله العلماء، لكن عصرنا بدأ بفكرة مؤداها أن العلماء لا بد أن يقولوا أولاً ما يقبله عالم الناس. ذلك يعني أن يلتزموا بقوانين أرضنا..

وبدأ العصر الحديث من الصفر تقريباً. إن ديكارت الذي التزم بأن يشك في كل شيء كان مجرد تعبير عن هذه البداية المروعة، فقد كنا في حاجة إلى أن نتعلم فضيلة التواضع ونضع أوهامنا عن الدنيا جانباً ونخطو أول خطوة على الطريق بكلمة ديكارت البسيطة «أنا أفكر إذن.. أنا موجود».. كنا ننطلق من قاعدة مختلفة كلية عن قاعدة عصر العلوم، وكانت أعظم صفات قاعدتنا الجديدة أن مسيرتنا لم يعد يقودها العلماء بل البشر وحدهم.

Twitter: @alqareah

إنها اللحظة الحاسمة التي شهدت ثورة الإنسان على أربابه الصغار. وشهدت عصيان جاليلو ضد البابا وعصيان الحلاج ضد فقهاء الخليفة وصراع داروين مع كتبة الإنجيل وصمود اينشتاين عشر سنوات كاملة ضد العالم بأسره من أجل معادلة رياضية.

فترة حافلة بالابطال والأفكار العظيمة لكن ميزتها أنها فترة صراع ضد «عصر العلوم» بالذات..

فجاليلو لم يكن يحتاج إلى أن يدخل السجن لولا أن «علماء عصر العلوم» كانوا يعرفون بالضبط، وبمنطق غير قابل للجدل أو النقاش، أن الأرض ليست كروية. لم يكن لديهم ثمة دليل عقلي واحد لكنهم أيضاً لم يكونوا يعتقدون أنهم في حاجة إلى دليل عقلي لقد «عرفوا» أن الأرض مسطحة لأنهم علماء، أما جاليلو ـ الذي لم يتمتع بهذه المعرفة ـ فإنه بالطبع مجرد حمار متمرد من حمير القافلة.. لقد كانت ميزة ذلك العصر المخجل أنه لم يحترم عقل الإنسان قط، ولم يعرف منحة التواضع لله، ولم يخطر بباله أنه يستطيع ـ أحياناً ـ أن يخطىء على عادة البشر. إن الفرق الوحيد ـ والمعجزة الوحيدة أيضاً ـ التي تحققت في عصرنا أن العلم الآن لا يعمل بالسوط بل بوسائل الإقناع العقلي الكامل.

فلن يضعك أحد في السجن إذا قررت الآن أن تزعم لنا أن الأرض مسطحة لن يشدك أحد من أذنك ويرغمك على أن تستغفر الله وتتوب عن هذه البدعة.. كل ما يمكن أن يحدث لك هو أن يطالبك العلماء بأدلة مقنعة وملموسة. فإذا كان بوسعك أن تطلع لهم هذه الأدلة من قبعتك فسوف ترى أنهم قادرون على الاقتناع حقاً، وإذا لم يكن بوسعك أن تطلع لهم شيئاً من قبعتك سوى الأرانب المسحورة فسوف ترى أيضاً أنهم يعرفون مكانك

Twitter: @alqareah

المناسب في السيرك المتجول. إن الإرهاب الفكري قد انتهى أمره ودفناه بأيدينا مع «عصر العلوم».

فالأدلة المقنعة والملموسة التي نتعامل بها الآن مقنعة حقاً وملموسة بأصابع اليدين. إن علمنا المعاصر يملك تحديداً «علمياً» قاطعاً لكل مقياس يستعمله، ويملك أيضاً قانوناً صارماً لحراسة منطقه من عرائس الشعر. إن كل العلماء سواء أمام هذا القانون، حتى اينشتاين المهيب السمعة لم يجد منه مجاملة تذكر. فقد ظل إلى آخر أيامه يدعو إلى البحث عن نظرية عامة تجمع كل ظواهر الفيزياء في قانون واحد، وأعلن ذات مرة أنه في الواقع يملك النظرية جاهزة لكنه لم يكن بوسعه أن يقدم أية إثباتات محددة ولم يكن بوسعه أن يعتمد على سمعته أيضاً. لقد مات اينشتاين دون أن يجرؤ على اقتراح نظريته مجرد اقتراح عادي.

ذلك حدث بعد أن صار العلم حرفة بشرية. بعد أن أصبحت مقاييسنا خاضعة لأبعاد العقل وحده وسقط العلماء السحرة من أبراجهم المدفونة وراء السحب وسقطت لحاهم وأسنانهم وجلابيبهم وهمهماتهم المريبة باللغات المنقرضة، ورفع الإنسان رأسه من أنقاض الإقطاع الفكري الذي ساد علومهم ومناهجهم المميتة وانطلق يفتش عن فتات الحق بأظافره.

عصرنا ليس «عصر العلوم» بل عصر إنسان ثائر، ذاق مرارة الخديعة على أيدي العلماء الذين أودعهم ثقته المطلقة، وجرب منهم أسوأ أنواع الغش والضحك على الذقون، واكتشف بنفسه في نهاية المطاف أنهم لا يقودون قافلته إلا لأنه ـ بالنسبة لهم ـ مجرد حمار مجهز بالبردعة مصنوع خاصة لكي يركبه العلماء. إذ ذاك رمى

Twitter: @alqareah

الحمار راكبه على الأرض ورفع قامته وانطلق يبحث عن الطريق بنفسه.

إننا لم نعد نملك «علماء» ولكننا أيضاً لم نعد نملك أية حمير..

فعصرنا الحالي رغم صغر سنه وقلة معارفه، ورغم مشاق الطريق أمامه وطول الرحلة، لم يقبل قط أن يساوم في قيمة «الإنسان». إن عقل هذا الإنسان هو التراث العظيم الوحيد الذي يملكه الفكر المعاصر، وهو أيضاً السلعة الوحيدة التي لن تعرض قط للبيع أو للشراء.

معارفنا ضيقة إلى حد لا يطاق..

وفتات الحقائق التي نجمعها بأظافرنا يوماً بعد يوم تكلفنا كثيراً جداً من المتاعب والألم، ومركزنا في الكون تافه ومخجل بصورة تثير السخط. لقد عرفنا أن أرضنا لا تقع في وسط الكون بل تقع بالضبط مع أمها الشمس في زاوية معتمة خالية من الأهمية على بعد ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة ضوئية من مركز مجرتنا، وأن مجرتنا أيضاً لا تقع في وسط الكون بل تطير مثل ورقة في مهب الريح مع بليون مجرة أخرى تفوقها ضخامة وأهمية في كون لا نعرف مداه. لقد عرفنا الآن أن الأرض بالنسبة لهذا الكون تبدو بالضبط مثل جرثومة الدفتريا بالنسبة للأرض. هذه المعرفة لا تدعو أحداً بالطبع إلى قيراط من الغرور لكنها أيضاً لا تدعوه إلى أن يهجر كبرياءه.. إن إنسان هذا العصر ـ رغم انه يعرف مدى تفاهة كوكبنا الصغير بالنسبة للكون ـ لا يحس بالذل كما أحس به إنسان عصر العلوم الذي ظل يعتقد أن الأرض مركز الكون كله إلى آخر يوم من حياته غير المشوقة.

إننا لا نشتري الكبرياء بالأشعار، ولا نحس بالخجل من قلة

Twitter: @alqareah

معارفنا، ولا نعتقد أن الجهل عيب. لقد تعلمنا أن ننظر إلى الواقع في عينه ونعترف بضآلة إمكانياتنا، ونعترف أيضاً بأننا بشر معرض للخطأ وجموح الخيال، لكن عصرنا لا يضم إنساناً واحداً يرضى بأن يستبدل كوخه المهدم بقصر السلطان عبد الحميد. إن علمنا المتواضع يبدو أكثر قيمة لأنه يستمد روحه من كبرياء الإنسان والأرض.

فتذكر... لا تدع عصرنا باسم «عصر العلوم».

لا تصمه بالعار الذي ناضل طويلاً لكي يرفضه..

نحن مجرد خطوة في الطريق الآخر. خطوة واحدة فقط، لكنها بالنسبة لي ولك.. وسام لا يقدر بثمن.

20 مارس 1971

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

علموا أولادكم السباحة

المرء يموت مرتين

في حصة البلاغة قال لي معلمنا أن الجمل سفينة الصحراء، ثم طردني من الفصل عندما قلت له أن السفينة أيضاً جمل البحر.

وعضني في ظهري، ودعاني خنزيراً وسخاً، وحملني إلى غرفة الناظر الذي شج رأسي بزجاجة الحبر وتركني أقف في الركن على رجل واحدة بقية الحصة. وفيما كنت ألعق خيط الدم رافعاً يدي في مواجهة الجدار، خطر لي أن الجمل ابن العاهرة لا بد أن يكون قديساً في مدرستنا.

وخلال الليل وقعت فريسة للكابوس.

كانت قطعان الجمال تتدفق من كل اتجاه عبر أزقة بنغازي المؤدية إلى الميناء وكان معلم البلاغة يقودها إلى حافة البحر ويتركها تسقط فوق رؤوسها مطلقة صرخاتها المفجعة ثم نهض المد ودوامات البحر وانطلقت النوارس المسعورة تنقر عيون الجمال وفاحت رائحة الدماء الدافئة على مدى المرفأ حتى بات في وسعي أن أشم إليها فيما كنت أدفن وجهي وراء الوسادة وأقول لمعلم البلاغة: رائحة الدماء تجذب الأقراش.

Twitter: @alqareah

وصرخ المعلم في وجهي، وأمرني أن أقف على رجل واحدة في الركن. فنهضت من فراشي ووقفت هناك حتى الصباح. ولكن ذلك لم ينقذ الجمال التعسة فقد بقرت الأقراش بطونها جميعاً. ولقد استمرت المذبحة حتى استيقظ أحد سكان البيت وأعادني إلى فراشي.

«أمون كألواح الأران نصأتها» قال لنا معلمنا في اليوم التالي، وقال إن هذا شعر كتبه رجل اسمه طرفة بن العبد في وصف سفينة الصحراء ثم نظر في عيني مباشرة وسألني عما إذا كان بوسعي أن أشرح هذا البيت.

ـ لا يا سيدي. ليس بوسعي..

ـ لماذا؟ قال المعلم: لماذا أيها الخنزير الوسخ لم تقرأ هذه القصيدة في البيت وتطلب من أخيك الأكبر أن يشرح لك مفرداتها.

وقلت له إن أخي عمره خمسون عاماً فقط وانه بمدى ما يتذكر، لم يسمع أبداً هذه المفردات.

وتسلل المعلم ورائي وطلب مني أن أنظر إلى الفيل الذي يقف في نافذة الفصل، ولكني لم أفعل كنت أعرف أن المعلم يمارس هذه الخدعة لكي يعضني في أذني وقلت له بوقار سخيف: ذلك الفيل يا سيدي كلفني قطعة من أذني في الحصة الماضية فلا تعتمد عليه هذه المرة. إنني لا أعرف مفردات البيت.

وأطبق المعلم بأسنانه على أذن تلميذ آخر ريثما هدأ غضبه، ثم انزوى فوق مقعده وطفق ينقر بأصابعه فوق المنضدة وعندما بدأ يحدثنا مرة أخرى كان صوته متهدجاً إلى حد الاختناق.

قال لنا: إن اللغة العربية في خطر، وإن مؤامرات النصارى قد أثمرت في نهاية المطاف، ولم يعد ثمة ما يستطيع المرء أن يفعله

Twitter: @alqareah

سوى أن يجثو على ركبتيه ويطلب من الله أن يمحو هذا الجيل المتفسخ ويعطي اللغة العربية جيلاً آخر.

ثم قال لنا: إن العالم فسد، وإن تلاميذ هذا العصر لا يساوون تفلة وقد نسوا تراثهم وتاريخهم المجيد وتركوه للنصارى الذين لم يكفوا قط عن تشويهه بالبدع غير الشرعية.

ثم نهض المعلم وخبط المنضدة بيديه صارخاً فوق صوت الناقوس: العالم فسد والأمة العربية تموت في قبضة أعدائها. وأنتم جميعاً تشاركون في هذه الجريمة، وسوف تنقرضون ذات يوم مثل قطيع من جرذان سفينة غارقة.

وبكينا من الخوف.

اجتمعنا في وسط الفناء وبكينا من الخوف، ثم مزقنا ملابسنا وقررنا أن نكف عن ارتكاب جريمة القتل، ولم يكن ثمة طريق آخر سوى أن نحفظ شعر طرفة بن العبد.

وطوال الأسبوع التالي ظللت أقرض تلك القصيدة كنت أعرف أنني أستطيع أن أساهم في إنقاذ اللغة العربية إذا حفظتها، وكنت أريد أن أحفظها. ولكنني لم أتمكن قط من تحقيق تلك المعجزة، فقد بدأت أخلط بين الكلمات بطريقة تثير اليأس، وبدأت أنسى بداية البيت بمجرد أن أنتقل إلى البيت التالي، وعندما تحقق لدي أنني عاجز عن حفظ ذلك الشعر، اجتاحني شعور غامر بالذل ووقعت خلال الليل فريسة للكابوس.

كان المعلم يطير فوق مبنى المدرسة وينعق بأعلى صوته:

ـ سوف تنقرضون مثل قطيع من جرذان سفينة غارقة. وكان صديقي قد بدأ يتحول إلى جرذ رمادي بجانبي، وقد استشعرت

Twitter: @alqareah

رائحة فرائه فيما كان يتلوى من الألم مصدراً صوتاً بالغ النحافة، ثم رأيت ذيله ودست فوقه بقدمي محاولاً الإمساك به، وفجأة التوى الجرذ وسلط أسنانه في ساقي.. ولقد رأيت الفراء الرمادي ينتشر فوق جسدي وأحسست بذيلي يسقط ورائي على الأرض فيما كنت أدس وجهي في الوسادة مستشعراً أسنان الجرذ الحادة.

وامتلأ الفصل بالفئران الرمادية ثم امتلأت باقي الفصول وأزقة بنغازي المؤدية إلى الميناء وكان المعلم ما يزال يطير مطلقاً صرخاته المفجعة عندما بانت السفينة وراء الحاجز الصخري وقال أحد الجرذان: دعونا نسبح إليها إنها مهجورة تماماً.

ثم انتشرت رائحة الفراء المبلول على مدى المرفأ ونتأت رؤوس الفئران الرمادية فوق سطح الماء وانطلقت تهتز برتابة في اتجاه السفينة. وكنت أشم رائحة المجاديف المتآكلة عندما رفعت رأسي فجأة ورأيت السفينة تنزف دماً فوق الرف الصخري مصدرة صوتاً مفجعاً مثل رغاء الجمل. ودسست وجهي وراء الوسادة وشرعت في البكاء.

كنت أعرف أننا سنغرق كما قال المعلم. وكنت أعرف أن الأمة العربية بأسرها تواجه الموت غرقاً في جثة فأر. وقد خيل إلي أنه كان بوسعي أن أجنب العالم هذه النهاية، لو أنني استطعت أن أحفظ قصيدة طرفة في الوقت المناسب.

وفيما وضع أحد سكان البيت يده فوق رأسي في الصباح. كنت أحلم بالنصارى وكنت أصرخ بملء رئتي: قصيدة واحدة.. قصيدة واحدة ليس غير. شيء مثل ـ أمون كالواح الأران نصأتها ـ وخمسة أبيات أخرى.

Twitter: @alqareah

ونظر زعيم النصارى في عيني، ورفع قدمه ليسحقني تحت حذائه ولكنني استيقظت قبل أن يهبط الحذاء.

وفي الفصل ملأت أنفي رائحة الجرذان.

كان التلاميذ قد قضوا الليلة في السباحة. وكانوا مجهدين إلى حد الإرهاق. وقد بقيت آثار الوبر فوق جلودهم واحترقت أعينهم بفعل الماء المالح فيما بدا أن أحدهم قد أصيب بالزكام وعندما جاء معلم البلاغة وطفق ينقر بأصابعه على المنضدة، لم يكن أحد فينا يرغب في أن يقول له شيئاً على الإطلاق، فقد انتهت لعبتنا بالملل على عادة الأطفال.

وزحف المعلم بجانبي وطلب مني أن أقرأ القصيدة، فأغمضت عيني وقرأتها له، كنت أعيدها كما وردت في الأصل وكنت أتجنب الأخطاء المطبعية.

ثم سألني عن المفردات، فأخبرته بها جميعاً طبقاً لتعليمات القاموس وقلت له إن كلمة ـ أمون ـ صيغة تأكيد من الأمن بمعنى السلامة. وعندما وضع المعلم يده فوق كتفي ظننت أنه سيشرع في البكاء على حالنا ولكنه بدا سعيداً للغاية وقد جحظت عيناه الزرقاوان فيما كان يسألني بخبث واضح:

ـ ماذا يصف طرفة بهذا الشعر؟

الجمل يا سيدي.. الجمل..

وسألني مرة أخرى: ماذا؟ أنا لم أسمعك.

وقلت له: سفينة الصحراء يا سيدي، إنه يصف الجمل الذي يدعوه المرء في حصة البلاغة سفينة الصحراء..

Twitter: @alqareah

وهز المعلم رأسه مبدياً ضيقه من لهجتي ثم طلب مني أن أنظر إلى الفيل الذي يقف في نافذة الفصل..

وتبادلت مع أصدقائي النظرات، كانوا يبدون مجهدين للغاية وكانت عيونهم نصف مغلقة، وفيما استدرت لكي أنظر إلى الفيل بدا المعلم يسلط أسنانه في أذني ويصفق بيديه طرباً لنجاح خدعته..

معلمنا البائس لم يعرف قط أن نافذة الفصل كانت إذ ذاك حقاً مليئة بالأفيال.

10 فبراير 1968

Twitter: @alqareah

رجاء من الحاج الزروق

عندما وصل الحاج الزروق إلى بيتنا لكي يذبح لنا كبش العيد خلال جولته الدموية بين بيوت الزقاق، كنت أنتظره وراء الباب مسلحاً بحجر صواني، وكنت أنوي أن أكسر رأسه بذلك الحجر وأنهي معه معركتي اليائسة التي خضتها ضده ثلاث سنوات بدون أدنى فائدة.

فقد كان الحاج الزروق يناصبني العداء.

وكان يحضر إلى بيتنا مرة كل عام لكي يذبح الخروف الذي أنفق في تربيته معظم وقتي، يبقر بطنه ويعلقه في السقيفة مقلوباً على رأسه ثم يضع البطانة في قفته ويذهب إلى البيت المجاور.. وكان يربت على ظهري بيده الدموية عندما أشرع في البكاء، ويطلع لي بضعة قروش من عقدة منديله معلناً بأعلى صوته أنني سأحصل على خروف آخر إذا نجحت في الامتحان.

وكنت أحصل على خروف آخر حقاً، وأنفق معظم وقتي في العناية به، وأجره ورائي في أيام الجمع لكي أغسله في البحر مع بقية الحصران، وأخلط له النخالة بأوراق الشاي المطبوخة، وأسلخ

Twitter: @alqareah

جبهتي في تعليمه النطاح. وعندما نصير أصدقاء ويصبح بوسعي أن أخرج به إلى الشارع بدون مقود وأسلطه على بقية أطفال الزقاق، يأتي العيد الكبير ويأتي معه الحاج الزروق لكي يذبح صديقي ويعلقه في السقيفة مقلوباً على رأسه ثم يطلع لي بضعة قروش من عقدة منديله معلناً بأعلى صوته أنني سأحصل على خروف آخر إذا نجحت في الامتحان.

كانت لعبة حقيرة تثير الملل.

وكنت قد تعبت من إلحاح الحاج الزروق، ومن رؤية أصدقائي المعلقين من أرجلهم المسلوخة في السقيفة. وخطر لي خلال الليل أن أغطي الخروف ببطانيتي القديمة وأخبئه وراء الصخور المكومة على شاطىء البحر أو أربطه في إحدى الخرب المجاورة لزقاقنا، ولكن خطتي بدت في الصباح مثيرة للقلق، فقد كان من الواضح أن إخراج ذلك الخروف من مكمنه الآمن في سقيفة بيتنا إلى أي مكان آخر في يوم العيد الكبير مغامرة خاسرة تشبه إخراج فأرك من المصيدة لكي تطلقه وحده في مدينة مليئة بالقطط وكان من الواضح أيضاً أن كسر رأس الحاج الزروق مهمة أسهل قليلاً من إخفاء خروفك عن أعين المواطنين في عيد الأضحى.

وقد كمنت له وراء الباب

تزودت بحجر صواني وكمنت له وراء الباب فيما كان الخروف يراقبني بفضول في المربوعة المقابلة. وكان المخلوق الطيب القلب لا يعرف الحاج الزروق، وكان مستعداً لأن يبادر إلى اللعب معه بمجرد أن يبدأ في مطاردته لكي يحكم وثاقه بحبل الغسيل. فالخرفان ـ فيما يبدو ـ لم تتعلم قط أن تتعرف على الجزارين من رائحتهم.

Twitter: @alqareah

وقد جاء الحاج الزروق في الميعاد.

شممت رائحته قبل أن يصل إلى باب بيتنا، وسمعته يتبادل تهاني العيد مع أحد الجيران ثم شممت رائحة البطائن في قفته الدموية، ومددت يدي لكي أفتح له الباب مطرق الرأس..

ومنحني الحاج الزروق ابتسامة حمراء وقرصني في أنفي من باب إظهار الود، ولكني لم أتركه يدخل.. لقد وقفت معترضاً طريقه وراء العتبة دون أن أجرؤ على النظر إلى وجهه فيما حشر الخروف رأسه بين رجلي وطفق يراقب معركتي الخاسرة بفضول.

ورأى الحاج الزروق حجر الصوان.. ورآني أغالب دموعي في يأس ورفعني بين يديه ثم وضعني فوق كتفه مطلقاً ضحكة عالية.. وعندما فتحت عيني بعد ذلك كنت أجلس على حجره في السقيفة وكان يرتشف قهوته من الفنجان الضائع وراء شنباته العملاقة ويتحدث بصوت عال عن يوم القيامة.

وقد أنصتنا إليه معاً، الخروف وأنا.

وسمعناه يقرأ لنا آيات من القرآن عن عيد الأضحى وسمعناه يسعل مختنقاً بعقب سيجارته الرديئة ويقسم لنا برأس ولده أن المرء يطلع من قبره يوم القيامة ويجد خروفه في انتظاره على باب المقبرة لكي يمتطيه إلى قصره في الجنة.

وعندما أحس الخروف بالملل وذهب يبحث عن أوراق الشاي المطبوخة في علبة القمامة، وضع الحاج الزروق طرف شنباته في أذني وأخبرني أن المشي على الصراط الذي يشبه الشعرة بدون معونة الخروف أمر مستحيل من جميع الوجوه، وإنني سأسقط في النار مع النصارى والشياطين إذا قررت أن أصل إلى الجنة مشياً على الأقدام.

Twitter: @alqareah

ووضعت حجر الصوان جانباً وخرجت من بيتنا مطرق الرأس.

كنت أعرف أنني خسرت معركتي مرة أخرى، وأنه ليس ثمة فائدة من البكاء على كتف الحاج الزروق، فهو لن يصدقني على أي حال، حتى إذا قلت له أنني لا أريد أن أذهب إلى الجنة مقابل خروفي، إن الله نفسه يقف إلى جانبه، ثم إن الكبار لا بد أن يذبحوا أحداً ما في عيد الأضحى ويدخروا عظامه في زير القديد لكي لا تملأ الفتاشة بطونهم بالأحجار.

كنت أعرف ذلك أيضاً.

وأعرف أن الخرفان ـ إذا كانت تذهب إلى الله حقاً ـ فإنها بالتأكيد لا تذهب كاملة.. إن الرأس على الأقل لا يخرج من بنغازي إلى أي مكان، وكل مواطن هنا يشوي رأس نعجته ويرسله إلى الفرن في صباح اليوم التالي، والبوسمة أيضاً لا يخرج من بنغازي بل يعلقه المواطنون على باب الدار لجلب المحبة وكذلك الأرجل وحبة القلب والفخذ والضلوع.. إن الخرفان في الواقع إذا كانت تذهب إلى الله حقاً، فلا بد أنها تذهب زحفاً على بطونها المبقورة بدون رؤوس وبدون أرجل أو كبدة أو أمعاء، والمرء لا يستطيع أن يعتمد عليها في عبور الصراط. إن النصارى الذين يمشون على أقدامهم يملكون فرصة أفضل للوصول.

ولكن الحاج الزروق يناصبني العداء.. هذا كل ما في الأمر.

لقد خلقه الله خاصة لكي يطارد كل خروف أحصل عليه مقابل احتمالي لعذاب المدرسة ثم يوثق رباطه بحبل الغسيل ويعلقه في السقيفة مقلوباً على رأسه بعد أن يسرق بطانته. هذا كل ما في الأمر.. إن الحاج الزروق قضاء وقدر. ورفعت رأسي إلى السماء

Twitter: @alqareah

فيما كنت أتسكع في أزقة المدينة على غير هدى، وطلبت من الله أن يمسخه إلى حجر ثم ذهبت إلى ضريح الرفاعي وأعطيته خمسة قروش مقابل تحقيق هذه الرغبة.

وفي الأسبوع التالي مات الحاج الزروق.. لقد كلفني خمسة قروش أخرى على ضريح سيدي عثمان، ولكنه مات في نهاية المطاف، ورأيت سكان الزقاق يشيعون جنازته بعد صلاة الجمعة، ورأيت الرجال الذين وضعوا نعشه فوق أكتافهم ينحنون بوهن تحت وطأة جسده الحجري..

لقد كان ذلك أفضل كثيراً من كسر رأسه بحجر صواني، وكان موت الحاج الزروق على هذا النحو النظيف الخالي من سفك الدماء موضع رضاء جميع أطفال الزقاق حتى أنهم قرروا أن يدفعوا لي نصف النفقات التي خسرتها على الأضرحة.. وعندما ذهبت إلى فراشي في المساء كنت قد جمعت في الواقع ضعف ما أنفقته على قتل الحاج الزروق، وكان صراخ العجائز في مأتمه يطرق سمعي في نغمة رتيبة مفعمة بالرضاء.

ووضعت مصحفي في نافذة الغرفة لكي لا تتسلل إليها أية غولة طارئة على الزقاق، ثم نمت ملء جفني، وحلمت بالمرابطين، ورأيت أحدهم يفتش تحت وسادتي بحثاً عن النقود التي جمعتها من الأطفال ثم سمعته يقول بصوت عال إنني خدعتهم كعادة المواطنين في بنغازي، وإنهم سيعيدون الحاج الزروق إلى زقاقنا في الصباح.. وعند منتصف الليل حلمت بالخرفان، ورأيتها تتجمع على باب المقبرة وتتلاعب فوق السور الحجري المنخفض ثم رأيت الحاج الزروق يطلع من قبره حاملاً عدة الجزارة فوق رأسه.. وسمعت ثمة من يقول له:

Twitter: @alqareah

ـ انتظر يا حاج إن خرفانك لم تصل بعد.. ما الذي يدعوك إلى هذه العجلة؟..

ورفعت رأسي في المنام واتكأت على سور المقبرة لكي أرى صاحب الصوت ثم سمعت الحاج الزروق يطلق ضحكة عالية ويقول بمرح:

ـ إنها ستصل في أية لحظة.. لقد كانت أفضل خرفان في المدينة، وكنت أطعمها بنفسي وأعطيها أوراق الشاي المطبوخة في السكر.

وضحك أحد ما في طرف المقبرة، وأصدر الباب الحديدي صريـراً مفاجئاً ثم ظهر الحاج الزروق عند نهاية السور ورأيته يحدق في الخرفان بدهشة، فيما كان الصوت السماوي الغامض يقول له:

ـ هذه خرفانك يا حاج.. أجل انها هي بعينها لقد حاولنا أن نركب لك خروفاً واحداً منها جميعاً ولكننا لم نجد شيئاً من الرؤوس.. اسمع.. أنت لم ترسل لنا خروفاً واحداً برأسه ماذا تعتقد أننا نستطيع أن نفعل من أجلك؟!

ورأيت الحاج الزروق يجثو على ركبتيه.. ثم رأيته يزحف بين الخرفان ويبحث عمن يحمل رأساً منها ولكنه ـ فيما يبدو ـ لم يجد شيئاً في نهاية المطاف، فقد كانت جميع خرفانه مبقورة البطون، وكانت خالية من الرؤوس والبوسمة، وكان بعضها مسلوخاً أيضاً.

وقد عاد الحاج الزروق للزحف على ركبتيه مرة أخرى ثم رفع رأسه فجأة وطفق يصرخ بصوت عال ويمزق ملابسه حتى التفت صدفة ورآني أراقبه من فوق السور.. عندئذ حدث شيء مضحك،

Twitter: @alqareah

فقد أسرع الحاج الزروق في اتجاهي ضاحكاً رغم أنني قتلته ورفعني بين يديه وشرع يحتضنني بود حتى كاد أن يكتم أنفاسي، وعندما أخبرته بأنني قد قتلته متعمداً مقابل خروفي ربت على كتفي مرة أخرى وقال لي إن ذلك لم يعد يهمه وإنه ما يزال يعتبرني صديقه، ثم وضع طرف شنباته في أذني وسألني بصوت خافت:

ـ هل رأيت ما حدث؟.

هززت له رأسي، فدفن شنباته في أذني أكثر وقال برجاء:

ـ اسمع.. أنت أحسن أصدقائي أليس كذلك؟.. اسمع إن صديقك لا يستطيع الآن أن يعبر الصراط.. هذا رأيته أنت بنفسك.. أجل انه أمر يدعو إلى الخجل، ولكن ماذا تعتقد أنني أستطيع أن أفعل.. لقد كانت عادة شائعة في بنغازي أن يأكل المرء رأس نعجته ويرسل الباقي إلى السماء.. اسمع، لا تدعني أعتمد على هذه المخلوقات المضحكة، انني أريدك أن تذهب الآن إلى بيتنا وتخبرهم بأنني في حاجة إلى مطية كاملة وإذا لم يكن بوسعهم أن يشتروا خروفاً، فدعهم يبعثون لي رأساً على الأقل.. أجل وقل لهم أيضاً أن يرسلوا البوسمة وحبة القلب.

ومددت يدي لكي أقرصه في أنفه من باب الأخذ بالثأر، ولكنه أزاح يدي جانباً وقال في صوت مرتجف:

ـ هذا ليس وقتاً للمزاح.. اسمع هل تستطيع أن تتذكر قطع الغيار؟.. أعني هل تحتاج أن أكتب لك قائمة؟ أجل.. أنت ستنسى.. إنني أعرف أنك ستنسى دعني أكتب لك قائمة..

وفي الصباح وجدت القائمة تحت وسادتي.

لقد كانت مكتوبة بخط رديء وكانت حروف الفاء منقوطة

Twitter: @alqareah

من تحت، ولكنها كانت قائمة حقيقية، وقد عرضتها على أطفال الزقاق، وقرأوها طوال النهار، ومات اثنان منهم بالضحك.

24 يناير 1970

Twitter: @alqareah

أين تجذف إسرائيل

في ملفات المحاكم الفرنسية حكاية مواطن عادي ارتكب ذات مرة جريمة قتل. زار عشيق امرأته في بيته وكسر رأسه بخمس رصاصات. ترك مسدسه بجانب القتيل. ترك أيضاً قبعته وبطاقته الشخصية.. ذهب بعد ذلك إلى البيت وأخبر امرأته أنه قتل عشيقها وطلب منها أن تبلغ عنه الشرطة. بعد نصف ساعة كان المواطن يدلي بأقواله لوكيل النيابة.

لم يعترف له بجريمة القتل. لم يهتم بالأدلة القاطعة ضده بل جلس في مقعده هادئاً ولفت نظر وكيل النيابة إلى أن المرء لا يقتل أحداً ثم يترك مسدسه وقبعته وبطاقته الشخصية في مكان الحادث، وأن القاتل لا يدبر جريمته في الخفاء ثم يترك عنوانه للشرطة، وأي مواطن في العالم يستطيع أن يكون القاتل ما عداه هو شخصياً.. بعد ذلك استراح في مقعده ولفت نظر وكيل النيابة إلى أن امرأته لم تكن على وفاق تام معه أو مع عشيقها، وأنه من المعقول أن يتصور المرء أن تلك السيدة ارتكبت جريمة القتل وتركت أشياء زوجها في مكان الحادث لكي تضرب عصفورين كريهين بحجر

Twitter: @alqareah

واحد. بعد ثلاثة شهور أثبتت المحكمة جريمة القتل على الزوجة البريئة..

لم يصدق أحد أن زوجها يقتل غريمه ثم يترك له بطاقته الشخصية. لم يصدق أحد أن القاتل الحقيقي يخلف وراءه جميع هذه الأدلة القاطعة.. كان من الواضح بالنسبة للقضاة أن الأمر كله دسيسه مفضوحة ضد الزوج الطيب القلب وكان من الواضح بالذات أن الدسيسة مفضوحة جداً. بعد عشرين عاماً اعترف الزوج بلعبته البسيطة التي ضحك بها على ذقن العدالة وانتقم بها من غريمه وترك المحكمة تنتقم له من امرأته وخرج من المذبحة دون أن يصاب بخدش.. إننا غالباً لا نصدق أعيننا عندما نرى اللص يحمل شمعة بل نبادر إلى تحيته باعتباره واحداً من الجيران. فلماذا أحدثك عن القتلة واللصوص؟..

لأني أريد أن أحدثك عن إسرائيل..

وأريد أن أضع اصبعك على اللعبة البسيطة والمدهشة التي تمارسها هذه الدولة وتضحك بها على ذقن العالم في وضح النهار. فأنا أحس أن خدعة المواطن الفرنسي الذي ترك بطاقته الشخصية بجانب ضحيته ليبعد الشبهة عن نفسه هي بالضبط الخطة المفضلة الآن في إسرائيل والمتمثلة في إصرارها على المفاوضات مع العرب.. إنني لن أدخر وسعاً لكي أثبت لك وجهة نظري بالتفصيل.

فالعالم كله يسمع أن إسرائيل تطالب بالمفاوضات معنا. العالم كله يعتقد أن ذلك يعني ببساطة أن إسرائيل ترغب في «التفاهم» معنا.. ونحن بدورنا نرفض المفاوضات رفضاً باتاً والعالم يعتقد أن ذلك يعني ببساطة أننا نرفض «التفاهم» المحكمة تضعنا في قفص الاتهام مقدماً باعتبارنا دعاة حرب. المحكمة تبرىء إسرائيل مقدماً

Twitter: @alqareah

باعتبارها داعية سلام. لا أحد يريد أن يصدق أن طلب المفاوضات ليس دائماً دعوة للتفاهم. لا أحد يريد أن يتذكر أن القاتل قد يترك بطاقته الشخصية متعمداً بجانب ضحيته لكي يجعل أمر اتهامه ـ ببساطة ـ أمراً غير معقول. إنني لا أريد أن أثقل عليك بإطالة النقاش في هذه النقطة ولكني أحتاج أن ألفت نظرك إلى أنك أنت أيضاً سوف تصدر نفس الحكم الجائر لو كنت تراقب قضيتنا من منصة القاضي أو مقاعد المتفرجين المحايدين. إنه لن يخطر ببالك قط أن إسرائيل الصغيرة ـ التي تصرخ بأعلى صوتها في طلب المفاوضات هي في الواقع الطرف الوحيد في نزاع الشرق الأوسط الذي لا يملك ثمة ما يقوله على مائدة المفاوضات.. إنني أدعوك لنقاش هذه الحقيقة المفاجئة بالتفصيل.

فدعنا نفترض أن إسرائيل ليست مشكلة تخصنا في الشرق الأوسط بل مشكلة تخص غيرنا. دعنا نفترض مثلاً أنها مقامة في وسط ولاية تكساس وأنها تقف في حالة حرب مع الشعب الأمريكي وتطالبه بالجلوس للتفاهم معها على مائدة المفاوضات..

أغلب الظن أن الشعب الأمريكي المحب للسلام سوف يبادر إلى تلبية هذا الطلب. أغلب الظن أن الرئيس نيكسون الذائع الصيت لن يرفض ـ مثلنا ـ الكلام مع إسرائيل بل يسارع إلى دعوة أبا إيبان لزيارة واشنطن ويقتسم معه زجاجة من الويسكي ويتفاهم معه أيضاً.

نحن لا يهمنا الويسكي ولكنّا نتمنى أن نعرف كيف يتفاهم الرئيس مع أبا إيبان، ماذا يقول له لكي يقنعه بحسن نواياه؟..

هل يوافقه على أن الإنسان اليهودي ورث ولاية تكساس عن والده السماوي؟ هل يوافقه على أن الإنسان اليهودي يملك الحق

Twitter: @alqareah

في الاستيلاء على بيت مخلوق آخر؟ هل يوافقه على أن أساطير التوراة سبب وجيه للتفرقة بين إنسان وآخر؟.. هل يوافقه على أن المواطن الأمريكي لا يملك الحق في أن يكسب قوت عياله من ولاية تكساس؟ هل ثمة فرصة «للتفاهم» مع رجل يعتبرك مقدماً أقل منه إنسانية لمجرد أنك لست يهودياً؟..

أغلب الظن أن الرئيس نيكسون لن يتفق مع صديقه حول هذه النقاط. أعني على الأقل من باب الكرامة الإنسانية وحدها، فالصديق الذي يعتبرك خارج دائرة شعب الله المختار لا يمنحك في الواقع فرصة للإبقاء على صداقته. وأغلب الظن أن أبا إيبان لن يعتذر عن هذه الإهانة لأن الاعتذار هنا يعني في الواقع اعتذاراً عن قيام إسرائيل نفسها. وأغلب الظن أن الصديقين المحبين للسلام سوف يفترقان على نية الحرب وأن الرئيس نيكسون ـ رغم كل مواهبه في إيجاد الحلول ـ لن يجد حلاً لمشكلة إسرائيل سوى الحرب.. أعني لن يجد سوى الحل الذي وجده العرب البسطاء ولن يتردد إذ ذاك في رفضنا جميعاً ـ باعتبارنا قضاة مخدوعين ـ إذا أصدرنا ضده حكماً بالإدانة. إن الرئيس نيكسون نفسه لا يستطيع أن «يتفاهم» مع إسرائيل؟.

ومع ذلك فإنه يدين العرب من محكمته العاجية.

يتهمهم بالدعوة إلى الحرب، يسخر منهم في خطبة المتقنة الصياغة. يبدي دهشته من رفضهم للتفاهم مع إسرائيل. يخدع نفسه بوهم مؤداه أن إسرائيل لا تطالب بالمفاوضات إلا لأنها ترغب في التفاهم معنا وتثق ببراءتها من التهمة. وينسى أن القاتل قد يترك بطاقته الشخصية في مكان الحادث لمجرد الرغبة في التمويه. إن الرئيس نيكسون يستطيع أن يكتشف هذه الحقيقة

Twitter: @alqareah

بدون عناء إذا جرب ذات مرة أن يقول لنا ما الذي يمكنه أن يفعله لو أن إسرائيل أقيمت في ولاية تكساس أو ما الذي يمكنه أن يفعله لو أن والدته الفاضلة ولدته في فلسطين رئيساً على المقاس.

لو أن الرئيس نيكسون رجل فلسطيني لفهم بنفسه ـ ودون جهد يستحق الذكر ـ أن إسرائيل التي طردته من بيته لمجرد أنه لا يتحلى بالديانة اليهودية دولة مقيدة إلى فكر عنصري متزمت، وليس بوسعها أن تتنازل عن شبر واحد منه، وليس بوسعها أن تتفاوض فيه مع أحد، وأن الدعوة للمفاوضات بالذات مجرد خدعة عقلية محضة.. لكن الرئيس نيكسون ليس رجلاً فلسطينياً، وإسرائيل ليست مقامة في ولاية تكساس.. والقاتل ترك بطاقته الشخصية في مكان الحادث وقضاتنا يعتبرونه بريئاً لأنهم لم يعرفوا قط أنه فعل ذلك متعمداً.

فدعنا ننقل إسرائيل إلى أي مكان آخر.. دعنا نحملها بين ذراعينا ونطوف بها على دول العالم ونسأل عند كل بوابة: هل لديكم مكان شاغر لإقامة دولة أبناء الله؟ هل لديكم حقول يستولي عليها أبناء الله ويطردون أصحابها. هل لديكم صفاية تصفى بها مواطنيكم فنضع اليهودي داخل الحدود وغير اليهودي خارج الحدود؟..

دعنا نطوف العالم ونسأل عند كل بوابة: هل ثمة أحد بينكم يرضى بأن يصبح الدين مبرراً للعزلة؟.. هل ثمة أحد بينكم يريد أن يتنازل عن بيته لمجرد أن ابن الله موشى دايان يحتاج إليه. هل ثمة أحد بينكم يعرف ما يستطيع أن يقوله لرجل يهودي يطردك من بيتك وحقلك ويحرمك من الحياة معه لمجرد أنك لست يهودياً مثله.

Twitter: @alqareah

دعنا نطوف العالم ونسأل عند كل بوابة: ما هو الفرق بين النازية وبين الصهيونية؟ ما هو الفرق بين رجل يقتلك لأنك لست جرمانياً وبين رجل يقتلك لأنك لست يهودياً.. ما هو الحل الذي أحضرته إسرائيل مع النازية سوى أنها جعلتها مشكلة العرب مع اليهود.. ما هو الفرق بين عنصرية البيض ضد السود وبين عنصرية اليهود ضد بقية الناس؟..

دعنا نطوف العالم ونسأل عند كل بوابة، ودعنا نترك للناس الغربيين بالذات فرصة كاملة لتشغيل عقولهم الذائعة الصيت فلعل بينهم ثمة رجل عبقري واحد يملك الشجاعة الكافية والذهن الكافي لكي يقف أمامنا مرفوع الرأس ويقول لنا على مسمع من الدنيا: الأمر بسيط أيها العرب البسطاء. صدقوا التوراة فوراً وأقنعوا أنفسكم بأنكم حقاً غرباء في أرض الله. أقنعوا أنفسكم بأن الله يملك ولداً مدللاً واحداً اسمه إسرائيل.. أقنعوا أنفسكم أن هذا الولد السماوي قد اختار الإقامة في يافا والخليل واختار بالذات أن يقيم وحده وأن يطردكم من حضرته اتقاء للدنس وأن الأمر واضح وسماوي ولا غبار عليه. دعنا نسمع صوت أصدقاء إسرائيل. نعرف منهم أنهم يطالبوننا بالتفاهم معها على هذا الأساس الهمجي أو نعرف منهم على أي أساس آخر إذن..

لا تنتظر أن تسمع شيئاً سوى الدعوة إلى المفاوضات.

ليس ثمة شيء آخر.. ليس ثمة من يعرف على أي أساس. حتى العقل الغربي الذائع الصيت، أعني حتى العقل الغربي بالذات الذي اشتهر بالحداقة والفهلوة لا يعرف أصلاً أن إسرائيل لا تلجأ إلى المطالبة بالمفاوضات لأنها «تريد» أن تتفاهم معنا بل لأنها تعرف ـ مقدماً ـ أنها لم تترك لنا فرصة للتفاهم. بكلمة بسيطة أخرى،

Twitter: @alqareah

العالم مخدوع بالبطاقة الشخصية التي تركتها إسرائيل عند رأس ضحيتها والمتهم البريء يرسله القاضي لحبل المشنقة. وأسوأ ما في الأمر أن هذه اللعبة غير العادلة تتم «بالذات» باسم الإنسانية.

فباسم الإنسانية يطالبنا العالم بأن نقبل إسرائيل.

وباسم الإنسانية يطالبنا العالم بأن «نتفاهم» مع إسرائيل. وباسم الإنسانية ينسى العالم أيضاً أن يتوقف ذات مرة عن مطالبتنا بالمفاوضات ويقول لنا إنه يريدنا أن نعترف بأن اليهود بالذات أعلى درجة من الإنسانية أو أن شعب فلسطين أقل درجتين. إن كل شيء في هذه الخدعة المزرية يتم باسم الإنسانية للدفاع عن كنيسة يهودية متزمتة ضد حقوق الإنسان في المساواة. ومع ذلك فإن أحداً لا يرى طبيعة التناقض المروع ولا يستطيع أيضاً أن يراه..

والسبب؟..

ان إسرائيل أقنعت العالم بأن خلافنا معها خلاف على الحدود بين الأراضي وليس خلافاً على الحدود بين الناس.

والنتيجة؟..

أن العالم يحثنا على تسوية خلاف الحدود مع إسرائيل. يريدنا أن نرسم خطاً فاصلاً على الخريطة. يعرض علينا مساعدته في إرسال قوات من الأمم المتحدة لحراسة البوابات. ينسى كلية أن إسرائيل لا تطالب بحدود بين الأراضي بل بحدود بين الإنسان اليهودي وبين غيره. ينسى أيضاً أن الخط الفاصل لن يميز قطعة أرض عن قطعة أخرى بل سيميز إنساناً عن إنسان آخر.. ينسى أن إسرائيل لا تطالب بحدود جغرافية تحدد هويتها على وجه الأرض إلا أنها تملك حدوداً ثقافية تميز إنسانها عن باقي سكان الأرض. العالم ينسى ذلك كله باسم الإنسانية وينسى بالذات أن قوات

Twitter: @alqareah

الطوارىء من الأمم المتحدة لن تقف لحراسة بوابة فقط بل لحراسة فلسفة وأن أول بند في هذه الفلسفة أن الإنسانية ليست سواء، وأن كل إنسان آخر بما في ذلك جنود الأمم المتحدة، يقعون نصف درجة تحت مستوى اليهود.

العالم يدين نفسه دون أن يدري.

يدين الإنسان العربي برفض الإنسان اليهودي وينسى في غمرة صراخه أن اليهودي بالذات لا يعتبر نفسه مجرد إنسان مثلنا أو مثل الأمريكيين أو الروس بل ولداً مباشراً لإسرائيل المختار.

العالم يديننا بالعنصرية وينسى في غمرة صراخه أن العنصرية بالذات هي الحجر الوحيد والأساسي في إقامة دولة خاصة باليهود.

العالم يطالبنا بالتفاهم مع إسرائيل وينسى أن يرشدنا إلى الطريقة المثلى لتحقيق هذا التفاهم دون أن نتفق مسبقاً على أن اليهود وحدهم هم الإنسانية وأن الرجل اليهودي يملك حقاً معترفاً به في أن يحتل بيتك ويطردك منه.

العالم الذكي المليء بالناس العباقرة وأصحاب الرأي والمشورة يستطيع أن يقع في ورطة لو قرر لاجىء فلسطيني واحد أن يعتنق الدين اليهودي هل يسمح له بالعودة إلى فلسطين؟.. هل يسمح لإسرائيل بمنعه من دخول دولة مقامة لليهود.. هل يهز له كتفيه ويخبره بأنه محروم من هداية التوراة لأن أمه البسيطة لم تلده يهودياً. ماذا يفعل العالم الذكي المليء بالناس العباقرة وأصحاب الرأي والمشورة؟.

أنا أقول لك أنه لا يعرف ثمة ما يستطيع أن يفعله.

وأقول لك أن العالم ليس ذكياً ومليئاً بالناس العباقرة وأصحاب الرأي والمشورة.. أنت تمنحه هذه الصفات لأنك تراه مهيباً ومعقداً

Twitter: @alqareah

من الخارج لكنه من الداخل مجرد حفنة من الرجال البسطاء الذين يرتعدون رعباً من مواجهة الحقائق المرة ويفضلون - ألف مرة - أن يخدعهم عدوهم على أن يرغمهم على مواجهة ضمائرهم بأمانة. إن الخدعة - مهما كانت رديئة تمنحك - على الأقل - الحق في إصدار حكم خاطىء بضمير مستريح.

لهذا السبب نجحت إسرائيل بخدعتها البسيطة، أعني لأن العالم كله مستعد أصلاً لقبول الخدعة بحثاً عن راحة ضميره..

فليرتح ضمير العالم أكثر. ليغمره السلام والنعاس.. ليمنحه رجاله العباقرة مزيداً من الأدلة الباطلة ضد العرب. ليساعده الله لكي يقنع نفسه بأن معركة الشرق الأوسط معركة على حدود الأرض وأن كل ما نحتاجه لإقرار السلام هو أن نضع حارساً برتبة أومباشي من الأمم المتحدة لكي يحرس البوابة. ليرتح ضمير العالم فهو في حاجة ماسة إلى أن يموت مستريح الضمير على الأقل.

لأنه لا بد أن يموت. لا بد أن يولد جيل آخر، ولا بد أن يولد عالم أفضل، وتقف إسرائيل أمام قاض من نوع مختلف وتكتشف - ذات مرة - أن خدعة البطاقة الشخصية لم تجعلها تفلت من العقاب إلا إفلاتاً مؤقتاً مرده إلى سذاجة القضاة وسوء حال العدالة.

وإن الإنسان يستأنف قضيته ضدها في ظروف مختلفة جداً.

الإنسان العربي واليهودي معاً..

البيض والسود والفلاحون.. وبقية الناس والأطفال.. كل إنسان في كل بيت يستأنف قضيته ضد إسرائيل ويعلق في عنقها تبعة الجريمة البذيئة التي ارتكبتها في وضح النهار. إن الخدعة - مهما بدت متقنة - لا بد أن تنكشف في نهاية المطاف لكي تصبح

Twitter: @alqareah

خدعة، ونحن نعرف على وجه اليقين. نعرف بدون ذرة شك واحدة، أن إسرائيل تلتزم تجاهنا خدعة المفاوضات لمجرد التمويه وأنها لا تستطيع أن «تتفاهم» معنا أو مع أصدقائها أنفسهم، بل أنها في الواقع لا تستطيع أن تتفاهم مع كتابها المقدس ذاته، وأن عالمنا لا يملك للقتلة سوى حبل المشنقة مهما بدت حيلهم ذكية لامعة، وأن إسرائيل تجدف لاهثة في هذا الاتجاه. وذات يوم ستصل..

ذات يوم تنكشف حيلة المسدس والقبعة والبطاقة الشخصية.

تنكشف حيلة المفاوضات ويسأل العالم نفسه عما إذا كانت إسرائيل لا تدعونا للتفاهم معها إلا لأنها لا تملك شيئاً تتفاهم فيه معنا أو مع غيرنا. ذات يوم سيضع العالم نفسه في مكان العرب ويكتشف ـ بدون عناء ـ أن العرب لا يرفضون اليهود بل إن اليهود هم الذين يرفضون الناس جميعاً وأن إدانتنا بالحرب هي بالضبط إدانة رجل يقاتل دفاعاً عن نفسه لأن عدوه لم يترك له فرصة الاختيار.

قلت لك ذات يوم سنجد طريقنا إلى محكمة عادلة.

ونكشف أمام قضاتنا خدعة البطاقة الشخصية والمفاوضات ونبرىء أنفسنا من التهمة المحزنة التي يعلقها الغربيون في أعناقنا ونضع أمامهم القاتل الحقيقي عارياً من ملابسه.

ذلك كله سننتظر حدوثه بمجرد أن نتعلم الدفاع عن أنفسنا دفاعاً فعالاً خالياً من العيوب ونكتشف أن لعبة المفاوضات لا تطالبنا بها إسرائيل إلا لأنها بالذات نقطة الضعف الحقيقية فيها. إن عدونا يدعونا إلى التفاهم معه لأنه يعتقد أن المفاوضات ستؤدي إلى اتفاقنا على الحدود بين الأراضي، فإذا وجهنا ضربتنا هنا بالضبط ودعوناه إلى أن يقول لنا أولاً الحدود الفاصلة بين إنسان وبين

Twitter: @alqareah

إنسان، فإن إسرائيل ملزمة برفض المفاوضات والتفاهم معاً.

إنها لا تملك فرصة الاختيار فالمساواة بين الناس هي آخر ما تستطيع إسرائيل أن تقبله وهي أيضاً آخر ما تستطيع أن تعترف أمام العالم بأنها ترفضه.. إن خدعة المفاوضات تبدو هنا بمثابة اعتراف من إسرائيل نفسها بأنها قابلة للتدمير في هذه النقطة بالضبط.

قلت لك إن هذا النقاش ليس حديثاً سياسياً.. لأن إسرائيل ـ بالنسبة لي ـ ليست سياسة بل ديناً نصف متحضر ونصف وثني، ولأني أعتقد أن قضية الشعب الفلسطيني لا تخصه وحده ولا تخص العرب وحدهم بل تخص الإنسانية بأسرها التي تحتاج إلى الدفاع عن وحدتها ضد كل فلسفة عنصرية.. إنني لم أدخر وسعاً في أن أشرح لك وجهة نظري.

18 ديسمبر 1971

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

بالشطارة

المواطن الليبي الشاطر يدير لنفسه أمر الحصول على قرض من المصرف ويبني به عمارة في الكيش ثم يؤجرها للمواطنين الأقل شطارة ويدفع ديونه من الإيجار حتى تصير العمارة ملكه. بعد ذلك يذهب إلى مكة لكي يغسل ذنوبه ويشتري لنفسه منديل الحج الأصفر لكي يعرف المارة أنه حاج ويجلس أمام العمارة ويسبح ويصلي وينعم بهواء الكيش ريثما يحين موعده لاستلام مسكنه في الجنة.. هذا ما يفعله الرجل الشاطر في بلدنا لكي يضمن مسكنه في الجنة حقاً، لكن الحاج الزروق - الأكثر شطارة ألف مرة - لم تعجبه هذه الطريقة الملتوية ولم يعجبه الكيش بالذات. لقد دبر لنفسه أمر الحصول على قرض من المصرف وقرر أن يشتري عمارته في الجنة مباشرة.

كيف فعل ذلك؟ سأبوح لك بالسر وأرجو أن تنقله إلى بقية مواطنينا من باب النصيحة في استثمار نقودهم بشطارة. لقد ذهب الحاج الزروق إلى فقي جامعنا وأعطاه سيجارة غريان وجلس لتجاذب الحديث معه على عتبة الخلوة. سأله عن الجنة والنار،

Twitter: @alqareah

وسأله عن أسعار البيع وأعطاه سيجارة غريان أخرى وطلب منه أن يهجر طريقة الفقهاء في الكلام بالفصحى ويتحدث معه بالعامية والأرقام «كويس» قال الفقي:

ـ المسلم عنده 70000 قصر في الجنة..

«بلى» قال الحاج الزروق!.

«كل قصر» قال الفقي «كل قصر فيه 70000 غرفة باهي؟».

«باهي» قال الحاج الزروق.

«كل غرفة» قال الفقي «كل غرفة فيها 70000 سرير وكل سرير فيه 70000 حورية».

«بلى» قال الحاج الزروق:

ـ كم حورية؟

70000 قال الفقي «مش باهي؟»

«باهي» قال الحاج الزروق «لكن بيش؟»

كان سؤاله اقتصادياً بحتاً. كانت فكرته مادية بحتة لكن الفقي تجاهل ذلك متعمداً وألقى على مسامعه خطبة باللغة الفصحى عن فعل الخير وجمع الحسنات والتزام التقوى مهما كانت صعبة. وعندما عاد الحاج الزروق إلى بيته تلك الليلة كان قد نسي كل ما قاله الفقي ولم يعد يذكر منه سوى جزء صغير واحد. وكان ذلك الجزء بالذات يؤرقه كثيراً لأنه لم يكن يحسن الحساب.

لقد أخبره الفقي أن المسلم ينال عشرة حسنات مقابل كل واحدة يأتيها. قرأ عليه الآية وشرحها له أيضاً لكنه نسي أن يلفت نظر الحاج الزروق إلى أن الحسنة ليست لعبة حسابية، وكانت هذه

Twitter: @alqareah

الهفوة سبباً في حرمان الحاج الزروق من النوم طوال السبعة أيام التالية.

لقد سهر يضرب حساباته. سهر يجمع الملايين على أصابعه. افترض أنه استلف من المصرف ألف دينار وأعطى كل شحاذ نصف دينار. قسم الألف على خمسين، ضرب الناتج في عشرة أنقص منه بعض الحسنات من باب الاحتياط، نسي الناتج في نهاية المطاف لأنه كان يعد على أصابعه وأيقظ امرأته لكي يستعمل أصابعها في العمليات الجانبية.

«امسكي عندك» قال الحاج الزروق لامرأته «ألف دينار على خمسين كم يقن»؟

«شنو خمسين؟» قالت امرأته..

ـ «خمس مرات عشرة عشرة».

قال الحاج الزروق ساخطاً..

ـ «شنو عشرة».

سألته امرأته..

ـ «عشرة.. عشرة».

قال الحاج الزروق «شنو هالجحشة؟»

ـ «ما فيه جحش وانت حي».

قالت امرأته واختفت تحت البطانية..

نظر إليها الحاج الزروق ساخطاً.. نسي الحوريات لبعض الوقت. مد يده التي كان يستعملها في عد قصوره ولكم امرأته على أنفها تحت البطانية. اضطر إذ ذاك إلى أن يغلق قبضته ويمحو عملياته الحسابية. بدأت امرأته تتباكى تحت البطانية وعاد الحاج الزروق

Twitter: @alqareah

لكي يحسب كل شيء من جديد. كان قد بدأ يستعمل قطعة من الفحم وكان قد وجدها أفضل كثيراً من امرأته.

في الصباح وصل الحاج الزروق إلى النتيجة النهائية. اكتشف أنه سينال عشرين حسنة مقابل ألف دينار وضرب العشرين في عشرة وأخطأ في عملية الضرب حتى اعتبر الناتج ألفين، لكن هذا العدد بدا قليلاً جداً في مقابل القصر السماوي، وبدأ الحاج الزروق يقنع نفسه بأنه قد يحتاج إلى أن يبيع خلخال امرأته.

- «يفتح الله».

قالت له امرأته عندما نقل إليها رغبته في بيع الخلخال «نعطيك خلخالي بيش اتحصل حوريات!! عليك شطارة»

- «كيف؟».

قال الحاج الزروق مستشعراً رائحة الخطر..

- «كيف!».

قالت له امرأته «وانا كنى.. حتى أنا نبي حوريين..»

تنفس الحاج الزروق ببطء.. ضاق صدره بعض الشيء.. أحس بلسع السخط يعبر حلقه، مد يده دون أن يدري وأطبق على حنجرة امرأته. قال لها فيما كان يقتلها «حوريين.. تبى حوريين.. وايش تبي فيهم يا كلبة؟ أنا مش مالي عينك؟ قولي.. تبي حوريين.. كم واحد تبي..».

ماتت امرأة الحاج الزروق بين أصابعه التي كان يعد عليها حساباته في الجنة..

زعم لجيرانه أنها ماتت بالكحة. حملها في عربة الموتى ودفنها

Twitter: @alqareah

بنفسه. أعطى الفقي رشوة لكي لا يقرأ عليها في غيابه. فعل كل ما في وسعه لكي يقطع عليها الطريق إلى الجنة والحوريين.

سهر بجانب القبر ثلاث ليال متتالية لكي يعرف ما إذا كانت ستستقبل أي زوار. بعد ثلاث ليال لم يزرها أحد ولم تخرج من قبرها ودعها الحاج الزروق مطمئناً وعاد لكي ينهي حساباته بقطعة الفحم.

«توا عندنا الخلخال» قال الحاج الزروق وهو يضرب حساباته «وعندنا التكليلة وألف مجيدي ـ يعني دينار ـ وعندنا خير الله كله وأطلقني عالحوريات».

طوال الليل انطلق الحاج الزروق عالحوريات.. طوال الليل ضرب حساباته بقطة الفحم من السقيفة إلى باب المرحاض.. طوال الليل ركع على ركبتيه ورسم الخطوط الرأسية والأفقية وعدها على أصابعه.. عند الفجر كان الحاج الزروق مرهقاً وساخطاً.. فقد أظهر الحساب أن ألف دينار من المصرف مقسمة على خمسمائة درهم لكل شحاذ ومضافاً إليها ثمن الخلخال والتكليلة لا تكفي لشراء براكة عادية في الكيش.. أظهر الحساب أن الحاج الزروق ليس أكثر شطارة من غيره وبات عليه أن ينقذ سمعته باللجوء إلى فقي جامعنا..

لجأ إليه..

زاره في الخلوة، أعطاه سيجارة غريان، عرض عليه المشكلة، أطرق الفقي برهة وأحرق سيجارة الغريان ثم رفع رأسه وأعطى الحاج الزروق الحل الذي لم يخطر بباله قط، ولم يخطر ببالك أنت، ولم يخطر ببال جميع المواطنين الشطار في مدينتكم البسيطة..

Twitter: @alqareah

إن الفقي.. مقابل سيجارة غريان ـ يستطيع أحياناً أن يشتري لك قصراً في السماء بثمن براكة في الكيش.

لقد أخبر الحاج الزروق أن يفك الألف دينار إلى مائة ألف درهم.. أخبره أن يفك ثمن الخلخال من عشرة دنانير إلى عشرة آلاف درهم أخبره أن يضع دراهمه في قفة ويجلس عند ناصية الزقاق ويعطي كل شحاذ درهماً واحداً فقط لا غير.. أخبره أن يختار أيام الجمع لتوزيع الصدقة ويختار بالذات الجمع اليتيمة من الأشهر الحرام.. قال له ضاحكاً وهو ينقل له الحكمة الكامنة من وراء هذه الحكاية:

ـ توا احسب عندك.. مائة ألف في العشرة، وفي يوم الجمعة اليتيمة يقن العشرة ألف.. يعني احسب عندك.. مائة ألف في الألف في العشرة وبعدين حق الخلخال عشرة آلاف في الألف في المائة ألف.. يعني بس احسب عندك..

لم يحسب الحاج الزروق.. لم يكن يملك من الأصابع ما يكفي لحساب هذه الثروة الطائلة.. لقد اكتفى بأن رمى بقية علبة الغريان في حجر الفقي وانطلق يركض إلى المصرف صارخاً. بعد نصف ساعة خرج الحاج الزروق من المصرف حاملاً قفته فوق رأسه وبحث لنفسه عن مكان شاغر عند ناصية الزقاق ووضع القفة بين قدميه وانطلق يوزع الدراهم على المارة..

وزع في اليوم الأول ألف درهم فقط نظراً لندرة الشحاذين.. بلغ توزيعه في اليوم التالي أكثر من عشرة آلاف درهم نظراً لزيادة متوقعة في عدد الشحاذين.. تربع في اليوم الثالث على قمة التوزيع بين أصحاب الصدقات عندنا وبلغت أرباحه من الحسنات في ذات اليوم نصف مليون حسنة تقريباً.. في الأسبوع التالي كان الحاج

Twitter: @alqareah

الزروق قد دفع نصف ديونه في الجنة، وصار نصف القصر والحوريات ملكه مقدماً، بعد أسبوعين اشترى الحاج الزروق آخر حورية ودفع ديونه إلى آخر درهم واشترى بالباقي علبة غريان وذهب لكي يزف النبأ إلى فقي جامعنا.

قال الفقي:

ـ ها..

قال الحاج الزروق:

ـ خلاص.. كل شيء مسوقر.

قال الفقي:

ـ مبروك..

قال الحاج الزروق:

ـ الله يبارك فيك.. وعقبالك إن شاء الله.

قال الفقي وهو يستلم علبة الغريان بإهمال.

ـ أنا؟!.. أنا عندي ما يسدني.. عندي سبع مرات سبعين ألف قصر في الجنة.. وكل ليلة نقرأ دلائل الخيرات ونسوقر سبعين ألف أخرى..

رفع الحاج الزروق رأسه ونظر إليه واجماً.. بدأ يضرب حساباته في غمضة عين.. خطر له أنه كان بوسعه أن يقرأ دلائل الخيرات أيضاً.. خطر له أن الفقي خدعه متعمداً وتركه يذهب للاقتراض من المصرف بدل أن يخبره بهذا السر. أطرق برأسه واجماً وقال للفقي:

ـ ليش ما قلتلي من قبل؟..

ـ شنو انقولك؟..

Twitter: @alqareah

ـ على دلائل الخيرات.. ليش اتخليني نسلف افلوس من الناس؟..

ـ لكن أنت مش فقي.. أنت تقرأ حتى مليون سنة وما اتحصل حتى براكة..

قال الحاج الزروق مستنكراً:

يعني شنو مش ناس كيف بعضنا.. وإلا واحد احميده وواحد حمد؟!..

قال له الفقي:

ـ هذا كفر يا جحش..

ـ ما فيه جحش وأنت حي..

قال له الحاج الزروق وتذكر وجه امرأته في آخر ليلة ومد عنقه وبصق على الأرض..

هل تريد أن تسمع بقية الحكاية.. أم تفضل أن نقف عند حد البصاق؟..

9 مايو 1970

Twitter: @alqareah

صوت من أسفل المئذنة

واحد زائد واحد = واحد!..

أقول لك، ولكنك تضحك بملء شدقيك وترفض أن تصدقني لأن ذلك يقلب عالمك الصغير رأساً على عقب.. فانظر بنفسك.. أعني دع الضحك جانباً.. ودع ما سمعته طوال حياتك من علوم فقي حارتنا العجوز.. وافتح عينيك مرة واحدة لكي ترى «الله» بنفسك.. مرة واحدة ليس غير..

فأنت تعرف أنه واحد.. وتعرف أيضاً أنه كامل.. أعني ما دمت تؤمن بوجوده فلا بد أنك تعرف ذلك كله، ولا بد أنك لا تستطيع أن «تضيف» إليه شيئاً، ولا أن «تنقص» منه شيئاً دون أن تخدش كماله.

فهل تعلمت الحساب جيداً؟..

إن الأمر بسيط إلى هذا الحد، إذا أضفت شيئاً لله فالنتيجة دائماً «واحد» لأن الله لا يزيد، وإذا أنقصت منه شيئاً فإن النتيجة دائماً «واحد» لأن الله لا ينقص.. وأنت وعالمك المضحك وفقي حارتنا العجوز وألف من ذلك الفقي أيضاً لا تستطيعون تغيير هذه النتيجة

Twitter: @alqareah

الصاعقة بمقدار كراع نملة..

ولكنك لا تصدقني لأنك تعرف أنني سوسة تنخر في عظام الأمة.

فلينخر السوس قلب السوس..

الإمام يملك مفتاح الجنة.. وأنا أنام على الرصيف، ولكن واحد زائد واحد = واحد.

واقرأ ما يقول القرآن ﴿فأينما تولوا وجوهكم فثم وجه الله﴾. وذلك يعني أنك حتى إذا «توليت» لكيْ تنظر في داخلك فسوف ترى وجه الله.. هناك تحت جلدك وفوقه أيضاً.

﴿إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا﴾.. أي يربطهما من الداخل بقوته كما يرتبط الجدار من داخله بقوة تماسكه.. وأنت أيضاً جزء من الأرض ومتماسك من الداخل بالله نفسه.

﴿وإن الله قد أحاط بكل شيء علماً﴾ والعلم المباشر هو العلم الكامل الذي يليق بالله، أي المعرفة وجهاً لوجه.

ولكن الإمام يملك مفتاح الجنة، ونحن ننام على الرصيف.

إنك لا تستطيع أن تضيف الشيء إلى نفسه، هذه بديهية رياضية بسيطة.. وإذا أضفت نفسك إلى الله فالنتيجة دائماً «واحد» لأنك تضيف الشيء إلى نفسه. هكذا ببساطة مذهلة رغم أنف فقي حارتنا العجوز. ولكنه يملك مفتاح الجنة، ونحن ننام على الرصيف.

فهل تعرف ما حدث؟.. ﴿الله في صدور المؤمنين﴾ يقول كل الفقهاء بلسان واحد، ويبدو الأمر في لحظة ما كأننا لم نعد نملك نقطة الخلاف، ولكنهم قتلوا الحلاج عندما قال «مثلهم» إن الله في

Twitter: @alqareah

صدور المؤمنين.. فهل تقتل أحداً يكرر ما قلته له بنفسك؟.

اللغز قابل للحل.

لقد قال الحلاج ما سمعه من الفقهاء، ولكن خطأه القاتل أنه عناه أيضاً، وكان الفقهاء لا يعنونه بأي حال.. وكان السلطان يعترض طريقهم.

كان السلطان يحكم «عبيد الله» ويمص قلوبهم بعود القصب، وكان يفعل بهم ذلك لأنهم «عبيد» الله وليسوا «عباد الله».. هل فهمت ما أعنيه.. إذا كان العالم والله وحدة متماسكة فكيف تمص قلوب الناس بعود القصب؟.

هذا خطأ الحلاج..

لقد قال للسلطان يا مولاي القاتل المقدس إن القوة لا تأتي من أعلى فقط بل تأتي من تحت أيضاً، وأن بائع الماء الذي حبسته لأنه لم يقف تحية لركبك يحمل الله في داخله وأن الجارية التي اشتريتها بنصف درهم تحمل الله في داخلها وأن الشاعر الذي قطعت رأسه لأنه هجاك يحمل الله في داخله وأنك لا تفضل أحد منهم إلا بمقدار كراع نملة، أعني بمقدار تاجك وحراسك.

لقد جعل الحلاج حياة السلطان جحيماً لا يطاق، وقتله بالدهشة عندما أثبت له أن واحد زائد واحد = واحد ثم خف الفقهاء إلى نجدته وقتلوا الحلاج الذي يحمل الله في صدره..

كان سوسة تنخر في عظام الأمة..

فلتعمر بيوت الله بالضوء والبخور..

أنت كنز لا يقدر بثمن لأنك تحمل أثمن الكنوز.. أعني حتى إذا كنت تنام على الرصيف مثلنا. فالثراء في الداخل الثراء في

Twitter: @alqareah

عالمك المتعالي الذي لا مجد مثله.. ولا قوة مثله ولا بساطة مثله.. أنت جزء من الأصل المتناهي الكمال، والإمام يملك مفتاح الجنة فقط.

وأنت لا تخسر..

لأنك غير قابل للخسارة، وغير قابل للهزيمة أو للحزن أو للموت. فالذي يتردى في هذه الحفرة هو عدوك وحده. عدوك الذي مات بالبهاق جرياً وراء الله في ليلة القدر ونسي أن ينظر في صدره.

نسي داخله..

وانطلق إلى الخارج لأن النقود في الخارج ولأن الأمان في الخارج.. ولأنه يريد أن يحس بالأمان عن طريق النقود والجاه وليلة الأربعين. ولكنه يحس بالخوف. أنا أقسم لك على ذلك.. إنه يحس بالخوف مثل جرذ يعوم على قطعة جبن في وسط المحيط.

إذا أكلها غرق.. وإذا لم يأكلها مات بالجوع.

فعد إلى الداخل..

عد إلى عالمك المتعالي بالضوء والمزين بالنجوم.. إن كل نجم منها يفوق أمك الأرض مائة ألف مليون مرة ولكنه مجرد قنديل معلق في سقف غرفتك أعني إذا كنت تنام على الرصيف.

عد إلى مياه دجلة مثل رماد الحلاج.. وانظر بنفسك. إنه لم يخسر شيئاً، ولكن أعداءه خسروا..

وليعمر بيت الإمام..

ليعمر بيت القديس الذي قسم العالم عشرة آلهة بالتساوي واحد لنا، وتسعة لغيرنا، ثم حمل حصته من مكة على مسمع من

Twitter: @alqareah

دول الحلف الإسلامي وذهب يقاتل حصة إسرائيل. فالشر بالشر والبادىء أظلم.

وسوف تعمر بيوت المسلمين.

أنت تعرف ذلك، وأنا أعرفه أيضاً، وسوف تنهار عشرة آلهة لكي يولد واحد فقط، وسوف يرى القديس بعيني رأسه أنه ذهب فارغ اليدين إلى إسرائيل الفارغة اليدين.

لأن واحد زائد واحد يساوي واحد، ولأن الله ليس في خدمة عرش صاحب الأمر في مكة، بل إن عرش صاحب الأمر في خدمة الله. ولأن الأعمال بالنيات. فالإنسان كنز غير محدود، ولكنه أحياناً يزيف محتوياته دون أن يدري هل عرفت ما أعنيه؟..

ليعمر بيت الإمام..

فالحلاج مات مقتولاً، والقاتل يسكر مع السلطان.. هل عرفت كيف يزيف المرء محتويات كنزه.. إنه يطليها بالقار، يضع نفسه في خدمة سلطانه المقدس، لأنه أخطأ ووضع الله في خدمة مطامعه.. هل عرفت ما أعنيه.. كيف أقول لك ذلك؟.. إنك إذا كنت لا تملك الله في داخلك فسوف ترى أنك رخيص.. وإن السلطان يستطيع أن يشتريك بملء منخرك فضة، ولكنك إذا كنت تملك الله حقاً في داخلك فمن يستطيع أن يشتريك؟.

لذا مات الحلاج، لأنه كان باهظ الثمن إلى حد لا يصدق.

واشترى السلطان فقياً طاهر الذيل بدرهم واحد ونصف درهمين.. ومرت عشرة قرون وواحد وثمانون سنة وتسعة أيام، وارتفعت الأسعار في كلا الجانبين.. أصبح الحلاج أكثر قيمة، وارتفع سعر الفقي وأضيفت إليه علاوة السكن.

Twitter: @alqareah

فكم تساوي أنت؟..

سواء كنت تعرف الله أو لا تعرفه.. كم تساوي أنت؟ ملء بطنك حساء؟ ملء بطنك معلبات هولندية؟.. كما يساوي المرء بدون الله؟..

وكم يساوي بقوة الله؟..

.. هذا أعظم الأسئلة على الإطلاق.. هذا الفرق بين الدنيا والآخرة.. هذا كل شيء في ثلاث كلمات.. الإنسان يباع بملء منخره فضة، أو لا يباع بأي ثمن على الإطلاق..

لأن واحد زائد واحد يساوي واحد، أعني ما دام الواحد موجوداً.. وما دام غير قابل للزيادة أو النقصان بكماله اللامتناهي.. ولكنك لا تصدقني لأن ذلك سيقلب عالمك رأساً على عقب، ولأن الإمام يملك مفتاح الجنة.. فحاول مرة أخرى.. استجمع قوتك وقوة فقي حارتنا العجوز وكل ما تستطيع أن تعثر عليه من الفقهاء والأنصار.. وابذل محاولة يائسة لكي تغير هذه النتيجة بمقدار كراع نملة.

اكسر رأسك المقدس على الجدار..

18 يوليو 1970

Twitter: @alqareah

أين تذهب هذا المساء؟

يشاع عن بنغازي ـ أم اليتامى ـ أنها مدينة الكساد، وأن الموتى يمشون في شوارعها في وضح النهار، ويشاع عنها أيضاً أنها (غولة مدينة) لأن بنغازي الحقيقية ماتت مقتولة في الحرب.. والإشاعة بالطبع تتسرب إلينا من مصادر الدعاية المضادة التي تهدف لخدمة الصهيونية والنوادي الليلية في أثينا على حساب غولتنا، ولكنها ـ للأسف ـ تلقى قبولاً واسعاً بين صفوف مواطنينا البسطاء حتى أنه تردد أخيراً ـ بهدف الإيحاء النفسي ـ أن أحد الأطفال الليبيين ولد مكفناً.. تلك الكذبة غير المعقولة التي لا تعني شيئاً في الواقع سوى أن إحدى مواطناتنا وقعت تحت تأثير الحرب النفسية وبدأت تخلط بين سجل المواليد وسجل الوفيات..

لكن بنغازي ليست مدينة مملة.. أعني ليس إلى هذا الحد على الأقل.. وإذا كان المرء يسمع أحياناً عن حدوث بعض الخوارق في الأزقة الخلفية، أو خروج أحد الموتى من قبره المعترف به لكي يزاحم مواطنيه على صلاة الفجر، أو إصرار ملك الجن على احتلال أحد بيوت دكاكين حميد دون إذن من مصلحة الأملاك معتقداً أن

Twitter: @alqareah

الدنيا عندنا فوضى فإن ذلك لا يعني شيئاً في الواقع سوى أن بنغازي ـ التي تعتبرها الدعاية المضادة مدينة ميتة ـ ما تزال تعج بالحياة من تحت ومن فوق.

هذا وجه الحق.. وتموت الدعاية المضادة بعد ذلك بغيظها، وتموت أثينا أيضاً.. فأسطورة الكساد لا تستطيع أن تقف على قدميها في مدينة مثل بنغازي ينقلب عاليها سافلها ألف مرة كل يوم، ويستطيع المواطن فيها أن يجلس على عتبة الباب الجواني عاماً كاملاً وهو يتسلى بمشاهدة ملك الجن يتمرغ في الخرارة.

أعني ذلك لا يحدث في أثينا حتى إذا دفع المرء وزنه ذهباً حتى إذا قضى عمره يتسكع بين بالوعات اليونانيين، فإنه لن يرى قط ما يستطيع أن يراه مواطننا في فناء بيته.. وإذا تصادف بطريقة ما، وخيل إليه تحت تأثير الويسكي في النادي الليلي أنه رأى ملكاً جنياً، فإن الأمر عادة يكون مجرد نمرة مملة يقوم بها أحد المهرجين مقابل سبعين دراخما.. أما عندنا في بنغازي فإن الملك حقيقة واقعة إلى حد الموت ثم إنه لا يتقاضى قرشاً واحداً مقابل أتعابه..

هذه واحدة..

وإذا تعب المواطن عندنا من الفرجة على الملك في فناء بيته، فإنه يستطيع ـ هكذا في غمضة عين ـ أن يستدير للجلوس على عتبة الباب البراني وينعم بمشاهدة غولة المنطقة التي تقف على أهبة الاستعداد لتلبية نداء المتفرجين في كل الأوقات. وسوف يكون بوسعه أن يرى جاره الميت يخرج للوضوء في الخربة المقابلة ويرى جاره الآخر يركض أمامه بدون رأس في غمرة تسرعه لتلبية النداء، ويرى شيخ المحلة ـ الذي مات بالكساد ـ يلوح له من وسط الجنة في حشد من الحوريات، ويرى الحاجة أمدللة تشرب حصتها من

Twitter: @alqareah

النبيذ بعد سنوات الحرمان في دار الفناء. ويقضي عاماً كاملاً في الفرجة على أشباح المنطقة، ويقضي كل سهراته بالمجان وسط برنامج حافل تتضاءل بجانبه كل برامج النوادي الليلية في أثينا.

إن ذلك لا يتوفر قط في أية مدينة أخرى، أعني حتى إذا دفع المرء وزنه ذهباً، فإنه لن يرى قط ما يراه مواطننا على عتبة الباب البراني في أي شارع في بنغازي، وإذا كانت بعض الأشباح تظهر أحياناً في بقية المدن الأخرى ـ وخاصة في أثينا ـ فإنها في الواقع لا تصلح للتسلية بأي حال، لأنها تظهر وتختفي في غمضة عين كأن وراءها ما يشغلها دائماً، ثم إنها لا تظهر بدون رأس، أما عندنا في بنغازي فإن الأمر يختلف كلية، وكل أشباحنا ليس لديها ما يشغلها وكلها تخرج في جميع الأوقات وتتحدث معك وتنزع لك رؤوسها وتقول لك (بخ) وتصلي معك الفجر.

وذلك بالطبع بدون مقابل فميزة بنغازي عن بقية مدن العالم أنها مدينة لقضاء السهرة بالمجان.. أعني بالنسبة للمواطن والسائح على حد سواء، فليس ثمة ما يستطيع المرء أن يفعله بمحفظة نقوده هنا.. وإنه يتركها عادة في البيت ويخرج للفرجة على الأشباح. وإذا كانت الأشباح ليست كافية، فإنه يستطيع أن يخطف رجله إلى زاوية المرابط المجاور ويتفرج على الشيخ ينقلب أمامه إلى سبع.

والتكاليف في الزاوية لا تتجاوز عادة قرشاً واحداً ثمن فنجان القهوة، أعني إذا كان المرء قد تعود أن يبذر نقوده في شرب القهوة، أما إذا كان مواطناً معتدلاً، فإنه يستطيع أن يشق طريقه في الزحام ويصل إلى مقاعد الصف الأول معتمداً على كتفه ويتفرج بالمجان.

وإذ ذاك سيرى بعيني رأسه ما لا يراه أي مواطن آخر في أية

Twitter: @alqareah

مدينة أخرى بميزانية ذهب، وسوف يشاهد شيخ الزاوية يتخلى عن انسانيته طائعاً وينقلب إلى سبع ثم يرفع مخلبيه في الهواء مستعداً للانقضاض على الشيطان الذي لا يستطيع المرء أن يقاتله ما دام مجرد إنسان مفتقر إلى المخالب، فيما ينقلب بقية العيساوية إلى ثعالب من باب التواضع ويسندون ظهورهم على جدار العرين تاركين المسرح للأسد وحده.

هذا العرض المثير يكلف المواطن عندنا ثمن فنجان القهوة ولا يستطيع المواطن في أثينا أن ينعم بمشاهدته حتى بزجاجة شمبانيا، وإذا أتيحت له فرصة ما لكي يشاهد عرضاً مماثلاً في أحد الملاهي السياحية فإن الشيخ عادة مجرد ممثل لا تربطه أية علاقة بالمرابط، ولا يستطيع أن يحقق شيئاً مجدياً في نهاية المطاف سوى أن ينقلب إلى فأر أو مخلوق صغير من هذا الحجم. أما الأسد فإنه بالطبع بضاعة خاصة تباع في بنغازي وحدها التي يقال عنها في مصادر الدعاية المضادة إنها مدينة الكساد.

وبعد مشاهدة الأسد والثعالب يستطيع المواطن عندنا أن يعرج في طريقه على سوق الظلام، وينعم بالظلام ومشاهدة أشباح الجنود الإيطاليين الذين حصدتهم طائرات الحلفاء في الحرب الماضية، ويتبادل معهم الشتائم بشأن الاستعمار ويتمتع بالشماتة فيهم، ثم يذهب إلى شارع (بوغولة) بعد منتصف الليل، ويشق طريقه وسط الأشباح إلى المسجد نفسه الذي يصلي فيه صاحب الشارع بدون رأس.. أعني إذا كان المواطن يرغب في متابعة السهرة.. أما إذا كان يملك ما يفعله في الصباح، فإنه يستطيع بالطبع أن يعود إلى بيته موقناً من أن بنغازي لن تحرمه من حصته على أي حال، وإنه سيجد في الطريق ثمة من يخبطه بحجر على ظهره أو يتظاهر

Twitter: @alqareah

بالرغبة في إشعال سيجارته ثم يقول له (بخ)!.

هكذا.. السهرة مستمرة في المدينة التي تدعى ظلماً بمدينة الكساد..

لا أحد يفوته نصيبه.. لا أحد يحتاج إلى محفظة نقوده كل شيء عندنا بالمجان، وكل مواطن يملك حقه كاملاً في تذوق متعة الحياة داخل مدينتنا بين الموتى والأحياء على حد سواء دون أن يضطر إلى بعثرة نقوده في شراء التذاكر وزجاجات الشمبانيا.. إنه يستطيع أن يوفر على نفسه اقتراف تلك الفضيحة ريثما ينال إجازته ويهرب إلى أثينا أو القاهرة أو بيروت أو أي مكان آخر يصلح لارتكاب الفضائح وإنفاق النقود.

أما عندنا في بنغازي فالحياة بالمجان.

وإذا تعب المواطن من مشاهدة ملك الجن والمرحومة الحاجة امدللة التي تتسكع كل ليلة أمام بيته في صحبة الرجال السماويين، فإنه ما يزال قادراً على إنفاق السهرة دون محفظة نقوده في صلاة التراويح أو في (سهرية) جاره الميت..

ذلك في متناول الجميع أعني (سهرية) الجار الميت، فالمرء لا يحتاج إلى أن يعرف المرحوم شخصياً لكي يسهر على حسابه، إنه يستطيع أن يحتل مقعده على أول كرسي يصادفه ويرفع الكلفة على الفور ويتحدث عن إسرائيل أو أية فضيحة تخطر بباله يكون قد اقترفها مواطن آخر. وعندما يدركه التعب يعود إلى بيته ويقابل المرحوم في وسط الزقاق، ويتبادل معه قذف بعض الأحجار.. أعني هكذا الدنيا والآخرة وجهاً لوجه في مدينة بنغازي التي تدعى ظلماً بمدينة الكساد.

فإذا كانت السهرية لا تكفي.. ولا تكفي التراويح أو الأشباح

Twitter: @alqareah

أو الأسد والثعالب، أو الحاجة امدللة وأصدقاؤها السماويون، فإن المواطن عندنا ما يزال يملك أم كلثوم..

وإذا كانت تلك السيدة الصبورة لا تكفي فإن المواطن المدلل يستطيع أن ينام بالطبع، لأن النوم أصلاً ليس عيباً، أو يطارد حرمه فوق السدة باعتبار أن الحياة ليست كلها متعة خالصة أو يذهب لقراءة البغدادي بقيادة شيخ المحلة أو يفتح لنفسه نافذة على العالم ويشترك في سماع الهلالية لكي يعرف على الأقل ما يحتاج إلى أن يفعله إذا دعته الظروف لاحتلال القيروان.

إن فرص السهرة مفتوحة للجميع. وليس ثمة مبرر لوقوعنا تحت تأثير الدعايات المغرضة القادمة من المدن الأخرى، فاللعبة كلها مجرد مناورة لجر رجلنا إلى الجحيم عن طريق اقتراف الذنوب، إنهم يحسدوننا على طهارتنا. هذا كل ما في الأمر، ولكننا نستطيع أن نفوت عليهم أهدافهم البذيئة بقليل من الصبر.. ففي بنغازي - وفي مكة المكرمة أيضاً - يولد الإنسان لكي يذهب إلى الجنة هكذا مباشرة على مشهد من جميع حساده يولد الإنسان هنا وفي فمه ملعقة من ذهب وقليل من بصاق شيخ المحلة ويوضع تحت حراسة عين الله التي لا تنام منذ يوم مولده على يد القابلة إلى يوم وفاته على يد شيخ فقهاء المستشفى الحكومي.

بنغازي.. الجنة، تقول تذكرة الميلاد عندنا.. ليس ثمة سيئة واحدة في الطريق، ليس ثمة ذنب واحد يستطيع المرء أن يقترفه بالنظر إلى وجه امرأة أو كراعها أو باللهو في الحديقة العامة وقراءة كتب النصارى في المكتبات المشبوهة أو بالخروج مع حرمه لقتل المواطنين بالحسد أو بسماع أعمال الشيطان الموسيقية في النادي الليلي.

Twitter: @alqareah

ليس ثمة ذنوب..

أنت تولد هنا بضربة من الحظ الحسن وتعيش هنا حتى تدهسك إحدى عربات الروميس أو تغرق في بئر النملة خلال العطلة الصيفية.. وبعد ذلك يحملك أحبابك للقاء وجه ربك ويطردون روحك من البيت بإقامة العزاء ثلاثة أيام وثلاث ليال ويذبحون النعاج احتفالاً بخلاصك من بنغازي..

وإذ ذاك تستطيع أن تقترف ما تشاء من الذنوب، وتستطيع أن تشرب نهراً كاملاً من البوخة، وتطارد الحوريات، وتلهو مثل سكان أثينا دون أن يجرؤ أحد على مضايقتك، فأنت تستحق إذ ذاك أن تقبض أتعابك مقابل حياتك في بنغازي.

مقابل حمولة العمر من الكساد.

18يوليو 1970

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

مرثية

في يوم العيد.. يطلق الله سراح الشيطان.. يعيد إليه حريته.. يتركه يتذكر رغباته الصغيرة التي نسيها طوال فترة السجن.. أعني يتذكر فنجان القهوة وسيجارة الغريان..

ويهرع إلى المقهى في ثياب العيد.

يخفي ذيله الجهنمي تحت جرده الحرير، ويخفي قرنيه تحت الطاقية الحمراء.. لأنه بدون ثياب العيد يبدو الشيطان بذيله المضحك مثل قردة الحاوي التي يسرح بها أربعة فقهاء..

كل عام وأنتم بخير.. يقول الشيطان لسجائره الغريان.. كل عام.

هذا أيها المواطنون هو الشيطان الذي يستحق الرثاء..

وجه في مرآة..

مواطن يعتبر نفسه في السجن لأنه لا يستطيع أن يدخن سيجارة غريان..

واحد منكم، يرى العالم من وراء نظارته الخاصة، يقيسه على

Twitter: @alqareah

مقاسه فقط، يفصل من العالم بدلة لنفسه ويرمي بقية القماش في النار.. لأنه هو العالم، هو الوجه في المرآة، هو الحياة، وبقية المواطنين مجرد كابوس.

رجل يحتكر الحياة..

يولد عارياً، ويموت عارياً.. ولكنه في الوسط يفصل الدنيا بدلة على مقاسه، ويحبك «لأنك مثله» ويكرهك لأنك «لست مثله» ويكره الأحياء. أنا أريد أن أستدر دموعك من أجله..

لأني أحس تجاهه بالعطف..

لأنني أعرف أنه مريض، وأنه ضحية عريه. فالذي يأتي إلى أدغال هذا العالم بدون أسلحة لا بد أن يسقط فريسة سهلة لأول عدو يقابله.. أعني يسقط فريسة نفسه لأنها أول عدو يقابله، أنا أطالبكم بالبكاء من أجل ضحية نفسه.

لأنه لا يعرف عدوه..

ولا يملك فرصة لكي يعرفه، لأن وجهك في المرآة لا يستطيع أن يرى وجهك الحقيقي، لأن الجهل لا يرى الجهل، فتفضلوا بالبكاء.

دمعة من أجل مواطن بريء، جاء إلى الدنيا رغم أنفه، ويخرج منها رغم أنفه، وينسى ذلك بالضبط طوال الطريق ويعتبر أن الدنيا هي التي جاءت رغم أنفها على مقاسه، دمعة على جثة هذه النكتة المروعة.

لأن الضحك أفضل أنواع البكاء..

لأن حكاية السفينة والفأرة انتهت أيضاً بنكتة مروعة. هل سمع أحد منكم أيها المواطنون بحكاية السفينة والفأرة؟ إذن اسمعوا..

Twitter: @alqareah

في سالف الأزمان، وقبل أن يولد أي سلطان.. أبحرت سفينة.. كان على ظهرها ثلاثة ركاب.. فأرة وحدأة ومواطن من مديرية القوارشة، وكانت تبحر في اتجاه أرض العسل لأن المواطن من مديرية القوارشة كان يقود السفينة بالطبع وكان يحب العسل..

فجأة تذكرت الفأرة في وسط المحيط أنها تكره العسل لأنه يلتصق برجليها، وطالبت بأن تتجه السفينة في اتجاه آخر..

«دعونا نذهب إلى أي مكان غير أرض العسل» قالت الفأرة.

«ليش؟..» قال المواطن من مديرية القوارشة ورفض أن يغير وجهة السفينة لأنه كان قد تمنى طوال حياته أن يأكل العسل..

«بالأصوات» قالت الفأرة دفاعاً عن حياتها «هذه السفينة تخصنا جميعاً. ونحن جميعاً نختار وجهتها».

«ليش؟» قال المواطن من مديرية القوارشة «العسل يناسبنا جميعاً. هل ثمة أحد يكره العسل؟».

أبحرت السفينة بصوت الربان وحده.

رآها القمر من سمواته العلية. قال في ذات نفسه.. «لو أبحر هذا الرجل بناء على رغبة الفأرة لعاشت الفأرة على الطعام الذي تريده وعاشت الحدأة على الفأرة وعاش الإنسان على الحدأة.. ولكن الإنسان يحفر قبره بيديه».

لأنه لا بد أن ينفذ العسل أيها المواطنون.

ذات يوم.. بعد ألف سنة ينفذ العسل ويموت المواطن من مديرية القوارشة، أعني يموت بالجوع مثل الفأرة والحدأة.. لأنه هكذا أراد الله للحياة.

أن تموت بيد قتيلك.

Twitter: @alqareah

أن تحترم حياة الفأرة أو تفقد حياتك.

أن تقود السفينة ليس بناء على رغبتك ـ بل بناء على أصغر أصغر أصغر رغبة بين الركاب. هكذا يغسل الله مخلوقاته من مرض الأنانية.

لأن النفس أمارة بالسوء أيها المواطنون.

لأن الشيطان الذي يطلق الله سراحه في يوم العيد يجلس في صدرك وصدري.. مجرد رغبة صغيرة. مجرد سيجارة غريان أو فنجان من القهوة أو قليل من العسل.. مجرد لحظة خاطفة في مجاهل النصيحة القائلة إنك ولدتْ عارياً وسوف تموت أيضاً عارياً.

وعندما تشعل سيجارتك النتنة.

وعندما تنال حاجتك من العسل تشعر بالرضاء ليس من أجل الدخان أو من أجل العسل بل لأن «الرضاء» جاءك من الداخل رغم أنفك.

فالمرء لعبة في يد عدوه الداخلي. لعبة تستحق الرثاء.

يقول له أنا أحب العسل فيردد وراءه أنا أحب العسل وكل مخلوق آخر لا بد أن يحبه.

يقول له أنا أريد أن أحيا فيردد وراءه أنا أريد أن أحيا وكل مخلوق آخر يستطيع أن يموت. هذا هو الشيطان الذي يحمله المرء في بطاقته الشخصية.

لأن الجهل لا يرى الجهل.

لأنه لا يدعوك إلى الجري بعيداً عن العقرب إلا لأنك «تعرف» أنها مثلك تريد أن تحيا، وأنها تؤمن مثلك بأن كل مخلوق آخر

Twitter: @alqareah

يستطيع أن يموت. أعني لأنك «تعرف» العقرب أنت تلوذ بالفرار..

فدعني أشدك من ثيابك لكي نرى مدى سطحية معارفك.

العقرب ستة حروف.

الإنسان سبعة حروف، فهل تلوذ بالفرار لأنك تخاف هذا الاختلاف السطحي في عدد الحروف..؟ هل أنت جاهل إلى هذا الحد؟ وإذا كنت تلوذ بالفرار لأنك تعرف أن الاختلاف ليس سطحياً بل في الجوهر نفسه، فما الذي تحمله في صدرك أليس غاية الجهل أن تهرب من عدو تحمله في صدرك؟.

المرء يهرب من ظله لأن اسمه عقرب. لأنه سجين رغباته. لأنه يريد أن يحيا وينسى أن يرى موته في موت الآخرين.

فاسمعوا حكاية القط الناسك.. لأني أشعر بالرغبة في سرد الحكايات هذا اليوم.

قيل إن قطاً كان يعيش في مديرية القوارشة، وكان يطارد الفئران طوال النهار لكي يحصل على قوته.. أحياناً يحصل على فأرين في يوم واحد، وأحياناً لا يحصل على شيء شهراً كاملاً أعني كان الجري وراء لقمة العيش ينهك قواه.

ذات مرة سمع القط أن الله يجيب دعوات النساك.

فذهب إلى الجبل وتنسك عاماً كاملاً ثم رفع يديه إلى السماء وطلب من الله مليون فأر مرة واحدة.. ولأن القط لم يكن قد نسي متاعب الجري وراء الفئران، فقد قال الله انه يريده أن يضع له فئرانه في صحن في وسط البحر لكي لا يهرب واحد منها.

تحققت رغبة القط في غمضة عين، جلس في صحنه وشرع يمضغ فئرانه مستريح البال، أكل القط ألف فأر في اليوم الأول

Twitter: @alqareah

وأكل في اليوم التالي ألف فأر وواحداً إضافياً.. أعني أكل بدون تعب على الإطلاق خمسة أعوام..

لكنه في نهاية المطاف بقي وحده في صينية فارغة حتى من الفئران.. بقي في عرض البحر. واكتشف أنه كان بوسعه أن يعيش بصورة أفضل لو بقي في مديرية القوارشة وترك للفئران حرية الهرب.. لكن الناسك يحفر قبره بيديه.

لأن الجهل لا يرى الجهل.

لأن الأعمى لا يرى الأعمى. فتفضلوا بالبكاء عندما يصطدم العميان. تفضلوا قولوا لي أن الزناتي خليفة اصطدم بأبي زيد الهلالي وبكيا من الضحك..

ودعوني أتدبر لكم حكاية جانبية.

ذات مرة كان ثمة مواطن من مديرية القوارشة، وكان قد فقد عينيه في حادث سيارة، أعني صار مواطناً أعمى في مديرية القوارشة، لكنه وضع على عينيه نظارة سوداء وزعم أنه لم يصب بسوء لأنه كان على وشك أن يتقدم لخطبة ابنة عمه، وكان يعرف أنها سترفضه إذا اكتشفت أنه أعمى.

تقدم المواطن وطلب يد ابنة عمه..

جلس في المربوعة بنظارته السوداء وتظاهر بأنه يقرأ الجريدة ثم طلب يد ابنة عمه. كانت الجريدة مقلوبة في يده لكنه بالطبع لم يعرف ذلك في الوقت المناسب.

قال له عمه وهو يراقب الجريدة المقلوبة «مرحباً بك. إن ابنتي لن تجد زوجاً أفضل منك..».

تزوج المواطن من مديرية القوارشة ابنة عمه وعاش معها ألف

Twitter: @alqareah

سنة دون أن تكتشف عماه لأنها أيضاً كانت عمياء.

أعني هذه مشكلة الشيطان الذي يدعو إلى الرثاء.

28 نوفمبر 1970

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

إذا قيل لكم

منذ مليون سنة كان الإنسان مغطى بالشعر، وكان ـ بالطبع ـ لا يحتاج إلى قميص أو قبعة أو رباط عنق إلا بقدر ما يحتاج الحمار إلى بردعة.. خلال النصف مليون سنة التالية شرع الإنسان يتخلى عن شعره.

كان قد بدأ يعتمد على الصيد في كسب قوته اليومي وكان الصيد حرفة مرهقة لا يستطيع المرء أن يؤديها إلا بالجري وقد اضطر الإنسان إلى التخلي عن شعره الكثيف واضطر أيضاً إلى تنمية المسام فوق سطح جلده لكي يتنفس بصورة أفضل. وإذ صار لديه أفضل جهاز تبريد في العالم وصار بوسعه أن يركض وراء أرانبه البرية على طول مناطق «السافانا» دون أن يموت من الإعياء، لكنه أيضاً بدأ يحس بلذعة البرد وقرصة الشمس أكثر من أي حيوان آخر.. إذ ذاك لجأ الإنسان إلى حيلة الملابس.

لم يكن قد بقي من فرائه القديم شيء سوى نتف من الشعر تحت إبطه وفي ذراعيه وبعض الأماكن الحساسة من جسده، ولم يكن بوسعه أن يعتمد على النتف في مقاومة المناخ الصارم الذي

Twitter: @alqareah

وجده أمامه خارج جدران الغابة. لقد كان عليه أن يحل هذه المشكلة أو يموت من البرد وقد نجح الإنسان ـ كالعادة ـ في حل مشكلته، لكنه للأسف ـ وكالعادة أيضاً ـ صار عبداً لحلولة. إن مهمة الملابس لم تتوقف عند حماية الإنسان من البرد، بل تعدتها لكي تصبح مقياساً اجتماعياً لقيمة الإنسان نفسه.

الملك يلبس الدمقس والحرير ويحمي فروة رأسه بصفيحة من الذهب ويساوي بالضبط كل ما تساويه هذه البضاعة الباهظة الثمن. وخادم الملك يلبس ثوباً من الكتان ويربط وسطه بحبل ويساوي أيضاً ثمن هذه البضاعة حسب التسعيرة. إن الفرق بين الملك وبين خادمه فرق واضح لا تخطئه العين لكن الكارثة كانت ما تزال قادمة في الطريق.

فقد اكتشف الملك ذات يوم أنه في الواقع أغلى ثمناً من ملابسه. أغلى من ثوب الحرير وصفيحة الذهب وخواتم الماس التي يضعها في إصبعه. اكتشف الملك أن ذاته الملكية ـ مهما لبست من الملابس الباهظة الثمن ـ لا تستطيع أن تظهر للناس قيمتها الحقيقية. لقد كانت الإنسانية في حاجة إلى مقياس جديد لكي تعرف قيمة صاحب الجلالة. هنا أصبحت الملابس «شعارات رسمية».

لم يعد المرء يقيس تاج الملك بسعر الذهب في السوق بل بقيمته كشعار ملكي. إن التاج قد لا يزن سوى نصف رطل ولا يساوي بالتالي سوى حفنة دنانير، لكنه على رأس الملك يساوي الدنيا بأسرها وعلى رأس خادمه يساوي حبل المشنقة. إن التاج لا يلبسه سوى الملك..

والمسوح لا يلبسه سوى الكاهن والجبة الخضراء لا يلبسها سوى المرابط وثوب الكتان لا يلبسه سوى الخادم. لقد صارت الملابس

Twitter: @alqareah

عملة معترفاً بها لبيع الإنسان أو شرائه على حد سواء.

لم يحدث ذلك بين بقية فصائل القرود الأخرى لأن أحداً منها لم يكن بوسعه أن يخلع فراءه لكي يلبس جبة خضراء أو يغطي رأسه بتاج من الذهب. لقد كانت القرود تتبنى أيضاً نظاماً اجتماعياً خاصاً وما زالت تتبناه حتى الآن، وكانت تمارس بدورها عادة التفرقة الاجتماعية وتملك نصيبها أيضاً من الملوك والكهان والخدم والناس العاديين لكن القرود لم تعتمد على الملابس لإظهار هذه الفروق وبالتالي فإنها أيضاً لم تكن في حاجة إلى اختراع أية مقاييس اجتماعية. إن القرد يحدد قيمته بنفسه عن طريق ما يؤديه من أعمال. نحن خسرنا هذه المنحة العادلة لأننا خسرنا فراءنا وسقطنا فريسة المظهر.

لم يعد ملكنا أقوى مواطن لدينا أو أفضل مواطن بل صار «فرداً من العائلة المالكة صاحبة التاج». لم يعد كاهننا أكثر المواطنين معرفة بالله بل صار أكثر المواطنين التزاماً بمظاهر الكهنوت والمسوح الرسمي واللحية والثقافة المتوارثة بمساوئها وحسناتها. لم نعد نحكم على الناس بأعمالهم ـ كما أمرنا الله ـ بل بشكل ثيابهم فقط، إن خروجنا من فرائنا يشبه تقريباً خروجنا من الجنة لقد تمثلت هذه الحقيقة المحزنة على طول تاريخنا الإنساني حتى صارت بمرور الزمن حقيقة محزنة مألوفة.

في بداية القرن العشرين لم يكن في بلدنا ـ مثلاً ـ سوى بضعة مواطنين يرتدون البدلة ورباط العنق. واحد منهم والي تركيا والباقي باشوات من خدام قصره، أما باقي شعبنا فقد كان يرتدي طاقيته الحمراء وكاطه الإسكندراني وتلعب على شنباته الصقور. لم يكن لابس البدلة شيئاً سوى «واحد صايع متفرنج» أو بلغة شعبنا الورع

Twitter: @alqareah

«واحد نصراني» ولم يكن من النادر اعتبار ذلك المواطن ولداً متفسخاً خارجاً عن التقاليد وجرثومة فساد وصايع وهلفوت أيضاً.

كان يحلق شنباته، وكان ذلك عاراً واضحاً يحرمه من مظهر الصقور واحترام المواطنين.

كان يرتدي ثياباً غريبة مستوردة من مجتمع آخر ويأكل بالملعقة والسكين ويسكن في «الغرفة» ويختلف عن بقية مواطنينا.. وكان ـ بالذات ـ يمثل بيننا ما يمثله الهيبيز الآن لو كنا نملك بعض الهيبيز. بعد نصف قرن انقلب الميزان رأساً على عقب.

صارت الشنبات موضة قديمة.

صار الكاط الإسكندراني بدلة للكرنفال. تخلى المواطن عن عباءته. تخلى عن الأكل بأصابعه. صار «الصائع المتفرنج» موضة العصر. إنك تستطيع أن تفقد وظيفتك الآن إذا ذهبت إلى عملك بدون البدلة ورباط العنق.

فالمواطن العربي الليبي الأصيل يلبس بدلة ورباط عنق.

هذه الآن حجة العصر. إنه لم يعد يذكر شيئاً مما قاله عن هذه البدعة في بداية القرن. لم يعد يذكر أن البدلة بدعة من بلاد النصارى. لم يعد يذكر أيضاً أن كاطه الإسكندراني وحده يمثل الأخلاق الحميدة والرجولة والكرامة، انقلبت أحكامه الأخلاقية رأساً على عقب.. لم يعد لابس البدلة «واحد نصراني» بل صار مواطناً كريماً متحضراً ولم يعد لابس الكاط مواطناً متحضراً بل صار سائق حنطور متخلف أعني باختصار ـ تغيرت أحكامنا الأخلاقية وانقلبت رأساً على عقب.

تركنا الشملة الحمراء والشنبات والصقور وجرد الحرير ولبسنا فراءً جديداً، وبذا صار لدينا قانون جديد للأخلاق نحدد بمقتضاه

Twitter: @alqareah

مكان كل مواطن في المجتمع. واحد ننحني له احتراماً، وواحد نرميه بنظرة استغراب ونقول له ناصحين «البس حاجة معقولة يا خويا» ونعني بذلك البس بدلة وقميصاً أبيض ورباط عنق وقص شنباتك البربرية.

إننا لا نحكم على الناس بمظهرهم. أعني نحن لا نعرف إننا نحكم على الناس بمظهرهم ولكننا في الواقع نفعل ذلك بالضبط وقد فعلناه دائماً منذ أن تعلمنا حيلة الملابس.. كل ما في الأمر أن المرء لا يلاحظ عاداته اليومية.

لا يلاحظ حاجبيه عندما يرتفعان فجأة إذا مر أمامه مواطن بفراء مختلف. لا يلاحظ مقاييسه الضيقة الأفق التي تمده فوراً بحكم جاهز على كل مواطن بمجرد أن يراه من الخارج. إن الله وحده يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم أما مواطنوكم فإنهم يؤاخذونكم بسعر قمصانكم.

الرجل الغني يعرف هذه الحقيقة ويشتري لنفسه أغلى قميص في السوق ويزينه بأزرار الذهب ويطلع كمه من نافذة عربته الباهظة الثمن لكي يقدر مجتمعه سعره بالضبط. والرجل الفقير يعرف هذه الحقيقة أيضاً ويركض بينكم مطرق الرأس لأنه يفهم بالطبع أنه لا يساوي لديكم أكثر من ثمن قميصه المهلهل.

إن القرد فينا لم ينقرض قط.

ولم يفقد شيئاً من رذائله القديمة وقدراته الخارقة على ارتكاب الحماقات المضحكة، ولم يخسر شيئاً طوال نصف مليون سنة من الحضارة سوى فرائه الوبري الذي استبدله بالبدلة ورباط العنق.

الباقي ما يزال على حاله.. فتذكر، أعني أرجوك أن تتذكر، إننا عندما نصف الإنسان بأنه مجرد قرد لا نهدف بذلك إلى إصابتك

Twitter: @alqareah

بالزعل ولا نريدك أن تغضب أيضاً. إننا فقط نقرر أمامك حقيقة واقعة من تاريخك نفسه. وإذا كان لا بد أن يدفعك الحق إلى الغضب فانفعل واغضب كما تشاء، لكن ـ من أجل الله ـ لا تمزق قميصك أيضاً. إنك إذ ذاك سوف تضطر إلى شراء قميص آخر فوراً أو يضعك مواطنوك في مستشفى القرود المجانين.

19 يونيو 1971

Twitter: @alqareah

الموت في شارعنا

السيد رئيس التحرير:

نحن الموقعون أدناه سكان منطقة الصابري نريد أن نقول لكم هنا أننا لم نعد نرغب في أن تظل منطقتنا بوابة لعبور مواطني بنغازي في طريقهم إلى لقاء الله.

فنحن شبعنا موتاً، ونحن لم يعد بوسعنا أن نصل إلى بيوتنا في زحمة الموتى الذين يمرون بالمنطقة في بطء يثير السخط مثل استعراض سيىء النظام للإعلان عن وصول السيرك المتجول، كأن المرء لا يستطيع أن يجد طريقه إلى الله إلا إذا زحف به أصدقاؤه عبر منطقة الصابري وجعلوه يعطل المرور.

إننا نطالب بحقنا في الحركة ونطالب بإرغام الليبيين على التقدم السريع لإفساح المجال أمام عرباتنا، فالمرء لا يستطيع أن يغامر بالتورط في الزحف وراء جنازة ليبية دون أن يفقد نصف عمره في محاولة الخروج.

إننا نختنق في زحام الموتى يا سيادة رئيس التحرير، وشارعنا مليء بالعجائز الذين يموتون بانتظام يثير الشك بمعدل عجوز كل

Twitter: @alqareah

ثلاثة أيام، فلا ينتهي العزاء حتى يبدأ العزاء التالي بطريقة تلقائية كأن أحداً ما يدبر خطة سماوية لتحطيم أعصابنا.

هذا بغض النظر عن وفيات الأطفال، والأنباء المزيفة التي تصل بين حين وآخر عن موت أحد الأحباب في أرض الغربة وغض النظر أيضاً عن موتى جيراننا في الشارع الخلفي.

والأمر ـ يا جناب رئيس التحرير ـ ليس مجرد انتقال أحد الليبيين إلى الجنة في موكب من مناديل الوداع البيضاء، فالناس في شارعنا لا يعتقدون أن موتاهم ينتقلون إلى مكان أفضل من منطقة الصابري هذه هي المشكلة في الواقع، والمرء لا يستطيع أن يتجنب الإحساس بعد ذلك بأن سكان شارعنا لا يصرخون عبثاً على الدوام.

والصراخ طوله ثلاثة أيام بلياليها، واسمه «عزاء» ويقوم به حتى الآن الجنس اللطيف نسبياً الذي يخلقه الله في ليبيا بحلقوم احتياطي لتأدية واجب المواساة، فيما يجلس الرجال متقابلين على المقاعد لتبادل أنباء الفضائح في شارعنا وبعض فضائح إسرائيل.

والصراخ طوله ثلاثة أيام بلياليها، وسكان شارعنا ـ يا سيادة رئيس التحرير ـ لا يكتفون بالبكاء فيه وحدهم بل يدعون إليه أقاربهم أيضاً كأنه مجرد حفلة ساهرة.. فإذا عجز أحد الأقارب عن تلبية الدعوة إلى البكاء، فإنهم في الغالب يقاطعونه بقية حياته.. إن كل رأس في العائلة لا بد أن يشارك في المأتم ويحضر ليدق الصندوق بعصاه، ويجعل العزاء يبدو أكثر فخامة..

والدق يستمر ثلاثة أيام بلياليها، والعجائز الممتلئات باليأس يتبادلن نوبات العمل على الصندوق بطريقة بالغة الإحكام لكي يظل الصندوق المذكور مستعداً للعمل في أي وقت من الليل أو

Twitter: @alqareah

النهار، والمرء لا يستطيع أن يتصور ماذا يحدث في شارعنا عندما تصل إحدى قريبات الفقيد بعد الفجر مباشرة وتستقبلها الفرقة المرابطة على الصندوق بنوبة جديدة من إعلان الحزن المحلي.. المرء يموت من الهلع يا سيادة رئيس التحرير، فلا تدعنا ننسى أن نحدثك عن العوين الذي تضعه السيدة الليبية فوق رأسها، ثم تمزق خديها وتترك الدماء تتيبس على القروح وتلف شالاً حول جبينها الرمادي لكي تجعلك تحس أنك في حفلة تنكرية.

ولا تدعنا ننسى أن نحدثك عن الصدقات، فالناس في شارعنا تسربت إليهم أنباء سرية من مملكة الموتى مؤداها أن المرء يستطيع أن يغسل ذنوب موتاه بدماء النعاج، وهم يذبحون قطيعاً كاملاً كل يوم، ويخوضون إلى ركبهم في الدم القاني لكي يجد الفقيد حاجته من المغفرة، فالصدقة ليست مجرد وجبة عادية لقطيع من الفقراء، إنها لا بد أن تضم الأقارب مثل أية حفلة عادية، وتضم الفقهاء وأصحاب الحوانيت في الشارع الخلفي ولا بد أن تظل ساخنة على الدوام، ذلك يعني أن الناس في شارعنا يعرفون على وجه الضبط أن ذنوب موتاهم لا يمكن غسلها بأرغفة الزيت وحدها، إن الذنوب الليبية لا يغسلها سوى الدم، فلا تدعنا ننسى يا جناب رئيس التحرير ـ أن نحدثك عن الأربعين والزيارة النهائية لقبر الفقيد، إن السيدات في شارعنا ابتكرن هذه الحيلة المتواضعة للحصول على إذن بالمشي من رأس الشارع إلى المقبرة الثالثة على بعد ميلين، والحديث مع سائق التاكسي في طريق العودة، ومغازلة خفير المقبرة لكي يحضر قليلاً من الماء لقبر الفقيد، إنهن لا يقمن بزيارة للميت وحده، المرء يستطيع أن يرى ذلك في عيونهن، ولكن أزواجهن المرعبين لا يستطيعون منعهن من زيارة الموتى على أي حال.

Twitter: @alqareah

فلا تدعنا ننسى أن نحدثك عن موت أحد الأزواج المرعبين في شارعنا الذي يتلوه على الفور دخول السيدة حرمه في الرباط، ودخول الرجال عندنا في إعداد الخطط المميتة لإيقاعها في شباك الحب. وفيما تحلق السيدة رأسها طبقاً لعادة المنطقة، وتلبس أسوأ ما لديها من الخرق البيضاء وتجلس عاطلة في العتمة مثل شبح خال من الإثارة يبدأ الرجال عندنا في نقاش الأنباء الواردة عن حسن سلوكها، وشكل ساقها الذي يشبه العرصة، وميراث الفقيد.

إنها أسخف عادة بين الأحياء في شارعنا.

ولكننا هنا ـ يا سيادة رئيس التحرير ـ نشكو من الموتى وحدهم ونشكو من طريقة مواطني بنغازي في نقلهم إلى الجنة محمولين على الأكتاف دون مبالاة بحركة المرور في منطقتنا.

إننا نريد أن يتفضل الموتى بالركوب، ذلك يعني أن يناموا داخل نعوشهم في عربات نظيفة تحملهم إلى وجهتهم خلال دقيقة واحدة، فليس ثمة ما يدعو إلى إضاعة الوقت في المشي البطيء عبر زحمة الحمير وسيارات النقل ورائحة المواطنين.

ونريد ـ يا جناب المحرر ـ أن يكف عجائز شارعنا عن الموت بمعدل عجوز كل ثلاثة أيام، فهذه الخدعة غير المعقولة جعلتنا نعيش في مأتم دائم، وحطمت أعصابنا ورفعت أسعار النعاج في المنطقة.

ونريد إعلاناً في جريدتكم الغراء إلى جميع الأهالي بأنه ما دام الميت الليبي يخرج من بنغازي إلى الجنة مباشرة، فليس ثمة مبرر واحد للبكاء عليه سوى مبرر الحسد، ثم إن المرء لا يستطيع أن يعتبر الخروج من بنغازي كارثة بالنسبة لأي أحد، إنه ليس ثمة مكان أسوأ على أي حال.

ونريد ـ يا جناب رئيس التحرير ـ أن تنظروا في طلبنا بعين

Twitter: @alqareah

العطف، وتنشروه في الصفحة الأولى لكي يشعر المسؤولون بأنهم لا بد أن يحلوا مشكلة المواصلات إلى الجنة على الأقل.. فالمرء يستطيع أن يضيع وقته في انتظار الأوتوبيس إلى الفندق، لأن ذلك لا يعتبر خسارة ذات أهمية ولكنه لا يستطيع أن يزحف ببطء داخل نعش عبر منطقة الصابري دون أن يحس بالعبث..

إذن ـ يا جناب رئيس التحرير ـ لا تتركونا عرضة للموتى والأحياء معاً.

1 فبراير 1969

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

والحبر بالمجان

غداً أملك سبعة جنيهات..

غداً أعود إلى ليبيا وأملك سبعة جنيهات وأشتري حماراً مثل حمار يوسف النجار وجراباً من التمر والنوى وأترك علامات المرور تقودني عبر قرانا الصغيرة لكي أعبىء جرابين آخرين بأدبنا الشعبي.

ويطاردني الأطفال، ويقولون هذا يوسف النجار.

ويطاردني الكبار ويتهمونني بأنني جاسوس وانني جئت لأغري نساءهم وأسرق غلتهم من الكاف، وأهز لهم رأسي وآكل النوى وأكتب كل ما أسمعه من أدبنا الشعبي حتى ينفق الحمار.

ثم أعود لأطبعه على الآلة الكاتبة!

وسوف أتعلم الطباعة باللمس، وضبط الهوامش في الظلام، أنا أعرف أنني سأتعلم ذلك، فالمرء لا بد أن يتعود على الرؤية بلا عينين عندما يعيش بين الحواة.

نهاية المطاف.

أنا سأكتب أدبنا الشعبي، وسأجمعه في حزمة من الورق وأربطه

Twitter: @alqareah

بخيط وأتركه يتدلى من السقف لكي لا تأكله الفئران مثلي..

فالفئران لا تعرف قيمة أدبنا الشعبي.

الفئران يهمها أن تأكل أولاً، وتجد عملاً في شركة المقاولات وتمارس الحب وإنجاب الفئران.

وأنا أريد أن أكتب أدبنا الشعبي.

قصائد الرجال البسطاء الذين ماتوا في كل مكان وحفروا قبورهم بأظافر الكلمات بين العقيلة وبين أديس أبابا، وعلقوا في عنق جرسياني جمجمة من الياقوت والدموع.. قصائد الشعر والأغاني وتوجعات المزارعين في وديان فزان وطرابلس وسرت، وأحلام الحب المرتجفة في مراعي البدو وتجمعات السكارى في آخر الليل، والقصص وملاحم الحرب وأقوال الشيوخ وأغاني الحصاد والحرث وقص الصوف ومطاردة الراعيات وراء شجيرات البطوم.

كل شيء.

أنا سأكتب كل شيء، وسيطاردني الأطفال ويقولون هذا يوسف النجار، ويفحص المخبرون بطاقتي برية وبطاقة الحمار. ويصبون الماء فوق رأسي، ولكني لن أقف لأجففه قبل أن أنقر عالم العجائز فوق الورق، وأربطه بخيط.

قصة الساحر الذي يضع إبرة في شعر كل امرأة ويمسخها في الحال، قصة أبي زيد الهلالي وحكمة جازية السوداء القلب والعينين. الرحلة إلى تونس وقصر السفيرة عزيزة. أحزان الأميرة في قصر الغول السحار. معارك النص انصيص المدهش وخرافات الغيلان والجن الأسود والأميرات والحب والقمر والسحرة اليهود..

كل شيء، كل ما تعرفه العجائز.

Twitter: @alqareah

ويطاردني الأطفال..

ويهز الكبار رؤوسهم ويقولون «خرف!».

وأخرف. مثل قطة حقيقية ممتلئة الجلد بالدفء وزيت السمك سأخرف وآكل النوى وأعبىء جرابي بقلوب الميتين.

فأنا أعرف طريقي.

وأعرف أن ليبيا تحتاج إلى تلك الخرافات أكثر مما يعتقد الكبار والمتعهدون والصحفيون وتجار الخردة.

فالجسر لا يبنى في الهواء.

الجسر لا يبنى على جثة فأر يبيع الخردة، ولا بد من ربطه بين جبلين. لا بد أن يرتكز كل طرف فيه على أرض صلدة عجوز متينة البناء.

وإذا كان أحد المتعهدين يعتقد أنه يستطيع أن ينجب خمسة فئران ويتركهم يعبرون ليبيا على جسر من البالونات فما أسوأ أن يكون والد المرء متعهداً، وما أسوأ أن يعبر المرء ليبيا.

والأدب الشعبي تاريخ قابل للموت.

والأدب الشعبي مجرد كلام بلغة غير مكتوبة، والموت لعبة مريعة في عالم اللغات غير المكتوبة. وقد شهد تاريخ الثقافة في جميع العصور مظهر هذا الموت المحزن. ورأى الرجال يذرعون القرى منقبين في التراب عن كلمة باقية، حتى تنقسم ظهورهم من اليأس ويضيعون في التراب:

الأصمعي وحماد الراوية في الأدب العربي.

دانتي في الأدب الإيطالي.

ملير، وجرشيه، وزارايوف في روسيا، جريم وايريخ ترونز في

Twitter: @alqareah

ألمانيا ومئات الرجال الآخرين الذين نهضوا يدافعون عن تاريخ الموتى بقلم من القصب وصوفة مغموسة في الصمغ.

ولولا ايريخ ترونز لما سمع أحد عن ملحمة «فاوست».

ولولا صغار الكتبة في أثينا لما سمع أحد عن «الياذة هوميروس» وحرب طروادة وملاحم أوديسيوس. ولولا أقلام القصب لبدا هذا العالم أكثر كآبة من زير القديد في نهاية شهر مارس.

فالموت لا يترك شيئاً وراءه.

الموت متشرد محترف يحسن الرماية وإصابة الهدف ولا يستطيع أن يقهره سوى متشرد محترف آخر يصل قبله دائماً ويعبىء جرابه بكل ما يجده في الطريق، وليس ثمة شك أن كسب السباق سيبدو أكثر يسراً إذا كان المرء يملك وسيلة أسرع من الحمار.

أعني إذا كان المرء يملك نقوداً.

ومجموعة من الموظفين والآلات الكاتبة ومخازن الورق والسيارات والمكاتب التي تستطيع أن تجذب الرواة من أطراف الصحراء. وإذا كان المرء وزيراً يهمه أن يكسب السباق، ويعطي ليبيا تاريخها مكتوباً مثل الآخرين.

فالمطابع في كل مكان.

الرواة كذلك. والموظفون، والحبر بالمجان. ومكتب الوزير يعمل أحياناً مثل مصباح علاء الدين.

ولكني لست علاء الدين..

ولا أملك سبعة جنيهات، ولست في ليبيا الآن. أنا ما زلت

Twitter: @alqareah

أذرع هذا العالم وحدي. وأحشو جيوبي بالدخان والقش. وأدعو الناس لكي يقوموا بما لا أقوم أنا به.

ووراثي.. يصفق الأطفال.

وتدب الأحلام على الرصيف مثل صغار الكلاب، وتنبت الخرافات القديمة في قلبي ووجه جدتي العجوز..

لا تنه عن خلق وأنت فاعله..

لا.. لا تفعل ذلك قط..

15 يونيو 1968

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

البحث عن أهداف

أنا أعيش في بلد نامي.. أعني في بلد غير متحضر.. وأعرف أن ظروف حياتنا العامة لا تمثل سوى جزء صغير من ظروف الحياة في هذا القرن.

أعرف أن تطورنا المادي لا يمكن مقارنته بتطور بلد آخر في أي قارة متحضرة واننا نقف على بعد بضعة قرون من العصر الحالي.. أعني أننا نعيش في منتصف القرن الثامن عشر تقريباً.

وهذه الحقائق الباردة أستطيع أن ألمسها بأطراف أصابعي في معظم نشاطاتنا الخاصة من ارتباك أنظمة المواصلات إلى تربية الأطفال ـ مثل صغار الكلاب ـ على أرض الشارع. وأستطيع أن أراها بوضوح يثير اليأس في كل تفاصيل حياتنا من الصراخ على موتانا إلى الصراخ على العرائس والموت بالملل عند ناصية الزقاق والتشرد الفكري بين أقوال الإذاعات.

هذه الحقائق الباردة لا تحتاج إلى متابعة.. فنحن ـ رغم كل مساوئنا ـ لم ننس قط أننا شعب يعيش في منتصف القرن الثامن عشر.. وإذا قرر المرء أن يجر أحد الليبيين إلى نقاش هذه النقطة

Twitter: @alqareah

فسوف يدهشه أن يسمع اعترافه المسطح بأنه لا يستطيع أن يقارن ظروفه بظروف أي إنسان يعيش في بلد متحضر.. سوف يدهشه أن يسمع أن الرجل الليبي يعرف مكانه على وجه الضبط.

والنقطة هنا أن ذلك المكان مجرد تحديد للمستوى المادي وحده. أعني لمستوى التطور التكنولوجي والحضاري فالميكانيكي الذي يملك جاراجاً في أحد أزقة بنغازي يعرف على نحو اليقين أنه لا يستطيع أن يحقق المستوى التكنولوجي والآلي لميكانيكي آخر يعمل في مصانع فورد. ويعرف أيضاً أن ذلك ليس عاراً.

المثال هو نفسه بالنسبة لبقية الحرف.. بالنسبة للصحفي والممرض والمعلم وصبي المقهى والعامل في محطة البنزين.. فنحن جميعاً قادرون على تقبل الحقيقة القائلة بأننا أقل تطوراً، وأقل امكانيات.

والسؤال هنا.. هل نحن قادرون على تقبل تلك الحقيقة لو قال لنا أحد ما أن مستوانا الخلقي أيضاً أقل تطوراً؟.

سؤال يثير القلق.. فأنا أعرف بالتجربة أن نقاش النقاط الحساسة أمر لا يحبه كل الناس. خصوصاً إذا اعتمد النقاش على طرح الأسئلة المحرجة.. ولكن الذي يهمني أكثر من سواه أن ذلك السؤال يستطيع أن يفتح أمامنا ـ عبر غرورنا ـ طريقاً حقيقياً إلى مزيد من المعرفة الواعية. مزيد من الإدراك لمكاننا في واقع العالم.. هنا.. على الأرض.. في هذا العصر وحده.

فمرة أخرى.. هل نحن ـ خلقياً ـ أقل تطوراً كما أننا ـ مادياً ـ أقل تطوراً؟.

والإجابة تتطلب أولاً أن أقول لكم ما أعنيه بالأخلاق. فأنا لا أزعم هنا أنكم قطيع من اللصوص والقتلة والكذابين اللاأخلاقيين،

Twitter: @alqareah

فالواقع أنه ليس ثمة شعب في العالم يستطيع أن يكون كذلك.. إن قانون الحياة نفسه لا يسمح بهذه اللعبة..

ولكن الذي أعنيه: هل يعيش شعب ليبيا الآن انحرافاً ثقافياً في تفهم ظروفه العامة.. هل يتصرف الفرد في ليبيا طبقاً لمقتضيات ضميره، وما مدى نصيب ذلك الضمير من الحياة؟.

القاعدة العامة أننا شعب شبه أمي.. وأن الأمية ليست هي العجز عن القراءة فحسب بل العجز عن إيجاد الأهداف أيضاً.. وأن أخلاق الفرد تخضع بثبات لنوع الأهداف التي يريد تحقيقها.

فلنلتقط أمثلتنا من أزقة بنغازي بهدوء.

البقال الذي يملك دكانه عند الناصية، ولا يعرف شيئاً أكثر أهمية من أن يبيع سلة الخضار قبل أن تفسد.. ماذا يريد أن يحقق؟..

الفيلسوف الذي يجلس أمام دكان البقال، ولا يريد أن يفعل شيئاً سوى أن يقنع أصدقاءه بأنه يستطيع أن يحل مشاكل العالم بالنظريات.. ماذا يريد أن يحقق؟.

الصحفي الذي يتقيأ الحلول على الورق، وهو يعرف أن مستواه الفكري لم يتأهل قط لإيجاد أية حلول، وانه واقف في مكان واحد مثل علامة المرور.. ماذا يريد أن يحقق؟.

العامل الذي أكل قلبه جهاز الترانزستور، ومسخه إلى فيلسوف سياسي لا يهمه شيء أكثر من سفن الفضاء السوفييتية.. ماذا يريد أن يحقق؟..

المعلم الذي يجري ويجري لكي يتم المنهج في الميعاد بغض النظر عما يحدث في العالم ماذا يريد أن يحقق؟.

Twitter: @alqareah

أسئلة تثير الملل، ولكن الإجابة تستطيع أن تشير بوضوح إلى نوع الأهداف التي يعيش الناس من أجلها في ليبيا.. وبالتالي إلى حقيقة المستوى الخلقي العام.

والإجابة خمسة أسئلة أخرى:

لو قرر البقال ألا يكتفي ببيع سلة الخضار واضعاً يده تحت خده، بل يزيد من نطاق عالمه خطوتين كل يوم.. لو قرر أن يتعلم القراءة، أن يقضي مع أطفاله وقتاً أطول أن يفعل شيئاً جديداً لمواجهة دنياه المملة.. ماذا يحدث؟.

لو قرر الفيلسوف أن يترك النظْريات جانباً ويلمس الأشياء بأصابعه، لو أغمض عينيه ذات مرة واعترف لنفسه بأنه لا يستطيع أن يعرف كل شيء.. ماذا يحدث؟.

لو قرر الصحفي أن يتعلم منحة التواضع في تحديد طرق المجموعات، لو أصر على مراجعة معارفه المتجمدة وقياس عالمه بالمسطرة بدل الموت بالأوهام.. ماذا يحدث؟.

لو ترك العامل سفن الفضاء السوفييتية وشأنها وقرر أن يكتفي بتأدية واجبه تجاه من يحيط به.. ماذا يحدث؟..

لو كف المعلم عن معاملة تلاميذه مثل شرائط التسجيل وقرر أن يؤدي حيالهم واجبه الحقيقي.. ماذا يحدث؟.

يتغير وجه ليبيا؟..

تصبح بلداً آخر وشعباً آخر..

أنا لا أريد مزيداً من الأسئلة.. ولكن أتمنى أن أشير بوضوح إلى أن ذلك التغيير يتطلب مبدأ خلقياً عاماً اسمه «الإحساس بأبعاد المسؤولية»، وإننا لم نتطور ـ خلقياً ـ إلى الحد الذي نمتلك عنده

Twitter: @alqareah

هذا المبدأ تماماً كما أننا لم نتطور ـ مادياً ـ إلى الحد الذي نمتلك عنده فرصة المقارنة.

فميزة النمو الحضاري أنه يبدأ على الدوام وسط معركة محددة بين ما يحدث في الواقع وبين ما يجب أن يحدث، معركة يدخلها الفرد طائعاً ليقرر بنفسه عما إذا كان من الأجدر به أن يغير أسلوب حياته، أن يكف عن قتل الوقت بالعبث، أن يواجه العالم عارياً وبارداً ومسلحاً.

وهنا تبدأ منطقة الأخلاق.. الشجاعة لمواجهة الواقع، الأمانة في إدراكه.. الصدق في تقدير إمكانيات الفرد.. والصبر على احتمال الصراع القادم عبر كل لحظة قادمة.

وليس ثمة شك أن شعب ليبيا ـ مثل أي شعب آخر في إفريقيا ـ يملك نصيبه من هذه الفضائل، ولكن المرء لا يستطيع أن يزعم أن ذلك النصيب قد نما أكثر من بقية الوحدات الثقافية والحضارية الأخرى، إن مستوانا الخلقي مثل بقية مستوياتنا ما يزال متأخراً رغم كل النوايا الطيبة.

والمرء يستطيع أن يلتقط مليون نموذج من ليبيا لتأكيد هذه الحقيقة حتى يصاب بالقيء فقد ساعدت ظروف الرخاء على إبراز ملامح النماذج إبرازاً هائلاً لا تتخطاه العين.. والرخاء اختبار قاس فشل شعب ليبيا في اجتيازه حتى الآن..

بقي بعد ذلك أمر العلاج.. وأنا أتمنى أن أضع هذه المهمة أيضاً على عنق الدولة، أو البلدية الموقرة أو وزارة الأشغال.. ولكن الواقع يفرض نفسه بطريقة أخرى فالشعوب لا يتم إصلاحها في الورشة المجاورة.. ولا يتم إصلاحها بقصائد الهجاء في الجريدة الرسمية.

الإصلاح ـ على أساس علمي ـ لا بد أن يبدأ بالدراسة.

Twitter: @alqareah

بتحديد الأهداف المطروحة الآن أمام شعب ليبيا، وتقدير أبعادها بطريقة موضوعية مقسمة بالحياد.. فالواقع أن أخلاق مواطنينا ترتبط ارتباطاً كاملاً بنوع تلك الأهداف.. وقد تقرر حتى الآن أن ليبيا تريد أن تحقق مستوى حياة أفضل.. وفسر المواطنون ذلك بأنه مستوى حياة مادي أفضل.. وبنوا فوقه معظم مقوماتهم الأخلاقية.

فهل هذا هو هدفنا؟..

إنني أريد أن أناقش السؤال بل أريد أن أطرحه على هذا الوضع:

هل هدفنا أن نحقق مستوى حياة مادي أفضل بغض النظر عن بقية المستويات؟.

نحن شعب نصف جائع.. أجل.. أنا أعرف هذه الحقيقة، ولكنني اعتقدت أن الخبز وحده لا يكفي.

فإذا كان الأمر كذلك.. فأعطوا ليبيا أهدافاً أخرى، أعطوها فرصة لكي تجد نفسها قبل أن تتوه في أكوام الخبز.

30 مارس 1968

Twitter: @alqareah

المعجزة المبتذلة

... ولن يخدعك السراب إلا إذا
كانت قلتك فارغة من الماء

بالصدفة قد يحدث المستحيل.

ينبت الثوم في كرمة العنب.. يعطس التمساح.. تحدث أية خارقة أخرى، فكل شيء ممكن بالصدفة، أعني كل شيء حقاً ما عدا معجزة مألوفة واحدة: أن يولد الحب في قلب إنسان، ذلك أمر لا يحدث بالصدفة قط..

ولا يحدث من أول نظرة كما يزعم صغار الشعراء.. ولا علاقة له بالبنات أو الجنس أو الشوق.. إن الحب ظاهرة نادرة لم يعرفها الإنسان في تاريخه الطويل أكثر مما عرف المشي على أسنانه، لكنه أيضاً الموضوع الرئيسي الذي يشغل أذهان الناس بعد نتائج الدوري الممتاز مباشرة. إن كل مواطن ـ ولد أو سيولد ـ ينتظر فرصته بصبر لكي يمشي ذات مرة على أسنانه.

لكي يقع في الحب على حد التعبير الشائع.

يجد امرأة «تخطف» قلبه وتسخن دمه في عروقه وتتركه يحلق فوق السحب محمولاً على جناح الحب السحري.. وفي انتظار هذه المعجزة يدهن المواطن شعره بالزيت ويرتدي أفضل قميص في

Twitter: @alqareah

حوزته ويسلخ ذقنه بأمواس الجليت ويركض في الشوارع بحثاً عن مقابلة مع الحب. إنه يركض عادة طوال حياته دون أن يخطر بباله أنه في الواقع يطارد ظله. هذا يحدث لجميع العطشانين على حد سواء.

العطشان إلى الماء يطارد السراب. ويجري وراءه إلى آخر نفحة في أنفاسه يحرق دمه في وهج الشمس على أمل أن يطفىء عطشه على ضفة السراب ويملأ منه قلته.. إنه يراه دائماً على بعد نصف ميل فقط ويركض وراءه طوال حياته دون أن يقطع النصف ميل ودون أن ينال منه سوى مزيد من العطش.. هذه المأساة تحدث مليون مرة كل يوم في شوارع المدن أيضاً.

فهنا يركض عطشان من نوع آخر.. مواطن يبحث عن جرعة من الحب.. يبحث بالذات عن امرأة لأنه يعتقد أن الحب هو الجنس، بضاعة يجدها المرء عند النساء فقط، ولأنه تعلم طوال حياته أن الجنس يستطيع أن يطفىء عطشه لبعض الوقت على الأقل.

نتيجة هذا الخطأ المميت يمكن أن يفقد الإنسان طريقه إلى الأبد.. يجد ألف امرأة ويهرب من ألف امرأة. يسلخ ذقنه بأمواس الجليت، يبيد أحذيته بالمشي، يتوه في دهليز مغلق من وجوه النساء وقصص الحب المزيفة.. ينام في كل فراش يصادفه ويلعق مثل الكلب من كل إناء يصادفه. وفي نهاية المطاف لا بد أن يكتشف ذات مرة أن عطشه يزداد سوءاً، وأنه لا يملك سوى تلال الرمل التي يقضي فوقها مطارد السراب نحبه.. إن هذا المسخ لم يصنعه الحب بل صنعه الجوع الحيواني إلى الجنس.

إنه في الدرجة الأولى، مخلوق عاجز كلية عن الحب. عاجز

Twitter: @alqareah

عن حب المرأة التي تنام معه والمرأة التي ستنام معه، عاجز عن حب بيته وأطفاله ووطنه ومواطنيه وعالمه كله.. عاجز عن فهم مثلنا العليا وأخلاقنا وقيمنا المقدسة، وليس بوسعه أن يمنحنا أو يمنح نفسه شيئاً آخر سوى خيبة الأمل الخالية من العزاء.. إن تسعاً وتسعين في المائة من الناس الذين سكنوا عالمنا ـ أو سيسكنون فيه ـ يقعون بدرجة أو بأخرى داخل هذه القائمة البائسة. لهذا السبب ما يزال عالم الإنسان قطعة من جهنم.

فرأس المشكلة أن الحب ليس عاطفة وليس تحليقاً فوق السحب أو ذبحاً لقصائد الشعر أو تبادل النظرات الوالهة مع امرأة.. إنه في الواقع ـ على عكس ما يعتقد كل الناس ـ لا علاقة له بشؤون القلب على الإطلاق.

الحب موقف عقلي متناهي الرزانة.

فكرة ثابتة يتبناها الإنسان عبر معاناته العقلية لمشاكل عالمه، ويتخذها مقياساً نهائياً لسلوكه تجاه مواطنيه، ويبني فوقها كل طوبة في حياته، ويقف غالباً مستعداً للدفاع عنها بعنقه.. إن المسيح ـ وهو أشهر المحبين على الإطلاق ـ مات طائعاً فوق خشبتين.

مشكلة الحب أيضاً أنه لا يسقط من السماء ولا يجده المرء في عيون البنات ولا يصادفك في الطريق متخفياً تحت الجربي. إنه صناعة ـ مثل أي صناعة أخرى ـ تحتاج إلى بذل الجهد والتدريب المتواصل والعمل والعرق، وإذا كنت لم تسمع في حياتك قط أنك مطالب بالعرق لكي تتعرف على منحة الحب، فاسمع ذلك الآن.. إنك مطالب بأن تنزح عرقاً قبل أن تتذوق هذه النعمة.

فالسم وحده تستطيع أحياناً أن تناله بالمجان.

السم والجنس وبعض المغامرات المحزنة التي قد تتورط فيها

Twitter: @alqareah

خلال تجوالك في حارة الموسكي وراء البنات.

أما الحب الحقيقي فإنه ـ مثل الخبز نفسه ـ لا تناله بدون ثمن.. إن أحداً لا يستطيع أن يجعلك تشعر بالشبع أو بالارتواء إذا لم تكن شبعاناً ومرتوياً حقاً. أعني مهما حاول اقناعك بمنطقه وحكمته فأنت لن تصدق كلمة مما يزعمه لك.. ذلك بالضبط يحدث بالنسبة لمشكلة الحب.

ليس ثمة أحد يستطيع أن يمنحك «حباً» كما يزعم صغار الشعراء.. ليس ثمة امرأة تستطيع أن تحقق لك هذه المعجزة.. ليس ثمة بيت أو وطن أو طفل أو صديق. إن الحب «تخلقه» أنت في داخلك لكي تنعم به، أما إذا عجزت عن خلقه فلن يفيدك أن يحبك العالم بأسره. إنك ستعيش «وحيداً» مثل فأر في السماء حتى إذا كنت محاطاً بألف فأرة مغرمة بك.

هذه طبيعة المشكلة. مواطن يبحث عن النهر في الصحراء يجري وراء ظله يطارد أمنية مضحكة من صنع خياله المريض ثم تصدمه خيبة الأمل في نهاية المطاف وينتصب وسط تلال صحرائه المقفرة مستشعراً أسوأ أنواع الكره والحقد تجاه عالمه بأسره.. إنه ببساطة تاه في الطريق.

فالسبيل إلى الحب أن تغوص في داخلك.. أن تضع أنانيتك الخرقاء جانباً وتضع معها شهواتك الصغيرة وغرورك ورغبتك في الاستحواذ على كل شيء وجريك وراء إعجاب الناس بك وخداعك لنفسك باسم المثل العليا التي لا تؤمن بها إلا لأنها ترضي غرورك وحده.. السبيل إلى الحب أن تقفز خارج جلدك وتتعلم التواضع كما يتعلم الأطفال المشي.

عشر مرات ستقع وتكسر رأسك ومرة ستمشي خطوتين. عشر

Twitter: @alqareah

مرات ستخلط بين الجنس والحب وتخلط بين الرغبة في فعل الخير والرغبة في إعجاب الناس وتخلط بين التضحية وبين الأنانية المقنعة وتخلط بين الغرور وبين التواضع المزيف عشر مرات سترتكب هذه الأخطاء الفاحشة ومرة ستمشي خطوتين في الطريق الصحيح.

بعد ألف عام ستصل، أعني إذا كنت تستطيع أن تعيش ألف عام.. لكن ذلك لن يهمك أصلاً. إن يوماً واحداً على الطريق الصحيح يساوي بالنسبة لله وبالنسبة لعالمنا مليون سنة في الاتجاه الخاطىء فنحن مشينا ثلاثة آلاف مليون سنة حتى الآن في الطريق المضاد ونتيجة رحلتنا تستطيع أن تراها بعينيك: دبابات ومدافع ومذابح وقنابل ذرية وقليل ـ قليل جداً ـ من الخير. إن عالمنا لن ينقذه من الكارثة سوى الحب وحده.

لكن الحب ـ للأسف ـ ليس سهلاً مثل صناعة القنابل الذرية. ليس سهلاً مثل أي شيء. إنه المستوى العقلي الوحيد الذي ما يزال الذهن البشري عاجزاً عن تحقيقه في حالته الحاضرة.. وما يزال الإنسان يحاول تفاديه عن طريق استبداله بالجنس.. وليس ثمة شك أن لعبة الاستبدال تستطيع أن تؤدي الغرض لبعض الوقت وتستطيع أيضاً أن تعوض المرء عن حاجته إلى الحب، لكن ذلك لا يختلف في شيء عن رغبة العطشان في استبدال النهر بالسراب. إنه سيقضي بعض الوقت في الجري فوق تلال الرمال القاحلة ممنياً نفسه بالماء، لكن المؤكد أنه يموت بالعطش في نهاية المطاف.

ذلك مصير لا يمكن تفاديه.. إن تسعاً وتسعين في المائة من الناس الذين ماتوا أو سيموتون في هذا العالم جاءوا وذهبوا دون أن ينالوا من الحياة جرعة ماء.. والمرء يقول تسعاً وتسعين في المائة لمجرد الرغبة في التزام الاعتدال فالواقع أن النسبة أعلى من ذلك بكثير

Twitter: @alqareah

وأن تاريخ الإنسانية بأسره لا يعرف سوى بضعة أسماء للرجال الذين تمكنوا بطريق أو بآخر من تحقيق معجزة الحب.. واحد منهم اسمه المسيح والثاني اسمه الحلاج وكلاهما مات بأيدي الناس الذين أحبهم.

فهذا المسخ الذي أنتجته حضارتنا حتى الآن ومنحته لقب «إنسان» ليس قادراً على استقبال منحة الحب وليس بوسعه أن يمنح أحداً مقابل حبه شيئاً سوى حبل المشنقة. إنه لا يفهم من الهبة السحرية العظيمة سوى أنها جنس ولذة حسية وشنبات وبنات. هنا يتساوى القرود والناس والتماسيح.

هنا ليس ثمة فرق بين مخلوق وآخر. فكل حيوان يحتاج إلى الجنس لكي يحافظ على بقائه وكل حيوان ينال بعض اللذة مقابل أداء هذا الواجب الثقيل. كل ما في الأمر أن الإنسان ـ الذي يمتاز وحده بالقدرة على الكذب ـ يستطيع أن يضع بضع الأشعار في جوعه الجنسي ويدعوه «حباً».

يغنيه فوق خشبة المسرح.

يهذي به في النوادي الليلية والروايات الرخيصة والمجلات والأزقة والحواري. يخدع به نفسه ويخدع به أطفاله ريثما يطرق سمعه دوي القنابل الذرية. إن معجزة الحب التي لم يستطع الإنسان أن يحققها بعد لا يجوز أن تنال منه بالطبع سوى الابتذال والامتهان. لأنه بذلك يرضي غروره على الأقل ويحفظ قليلاً من ماء وجهه المهدور.

21 أغسطس 1971

Twitter: @alqareah

المرض

منذ إحدى وعشرين عاماً اجتاح الروس برلين..

وفيما كانت الكتيبة الخامسة تطوق جزء المدينة الغربي معلنة عزمها على الثأر لضحايا الألمان في لينينجراد، والفيلق المدرع يقاتل على بعد سبعين متراً من مقر هتلر، كان باقي الجنود القوقازيين يصلون إلى ضفة النهر الغربية في حراسة الطائرات، ليبدأوا أكثر عملياتهم الحربية شناعة منذ أن قادهم جنكيز خان عبر مدن الشرق في القرن الثالث عشر.

ولم تسقط برلين وحدها..

بل سقط شعب ألمانيا كله مرة واحدة، وأبيحت المدينة لمدة خمسين ساعة، تعلم الألمان خلالها درساً لا يمكن نسيانه قط.. وكان الحلفاء إذ ذاك يرابطون في منطقة الألب ويحيلونها إلى جحيم آخر مثل جحيم برلين..

وانتهت ألمانيا..

ووقعت وثيقة استسلامها بدون قيد ولا شرط، ثم قرر ترومان أن يلقي لعبته الذرية فوق رأس أمبراطور اليابان وجلس الامبراطور

Twitter: @alqareah

منكس الرأس لكي يوقع وثيقة استسلام أخرى، فيما رست البوارج الأمريكية على طول سواحل بلاده وتركت له سبعين ألف جندي أمريكي ليتعلم منهم الطاعة.

وتقرر أمر الحرب..

وبدا أن الشعوب التي خسرته، قد خسرت معه كل شيء آخر، وطفق الجوع يجتاح ألمانيا بلا انقطاع حتى اضطر الرجال إلى أكل الجرابيع والجرذان، فقد حرم عليهم الحلفاء كل شيء آخر حتى صيد السمك والعصافير، فيما انطلقت النساء وراء الجنود المنتصرين عارضات أنفسهن للبيع مقابل كسرة من الخبز الجاف..

حدث ذلك في ألمانيا واليابان وإيطاليا على السواء..

وحدث في البلدان الفقيرة الأخرى التي لم تشارك في الحرب قط.. ولم يكن ثمة ما يمكن حدوثه أسوأ من ذلك فقد استقر الإنسان على القاع الذي لا قاع وراءه.. كان الإنسان يجلس في الحضيض نفسه هذه المرة.

وأعلن أكثر الفلاسفة تفاؤلاً أن سقوط شعوب المحور سقوط نهائي لا مجال للنهوض منه خلال المائة عام التالية. وأن الدمار الذي أحدثته الهزيمة في أراضيها غير قابل للإصلاح تحت أية ظروف. بل أن انشتين كتب إلى ترومان يعلن احتجاجه على إلقاء القنبلة فوق اليابان باعتبار أن ذلك العمل ـ قد وضع نهاية محزنة لشعب نشيط خلاق، كان يمكن أن نتفاهم معه على السلام ـ. ولكن اليابان لم تنته نهاية محزنة..

ونهضت فوق أنقاض نجازاكي وهيروشيما خلال بضع سنوات صناعة عملاقة منظمة تنظيماً بالغ الدقة، جعلت من اليابان إحدى دول هذا العالم التي تمده بالحياة.. فيما أنجزت ألمانيا خلال ثلاثة

Twitter: @alqareah

أعوام بناء معظم مدنها، ثم تقدمت في العام الخامس لكي تمد الولايات المتحدة نفسها بقرض مالي لأول مرة في تاريخ أمريكا.. وكان ايزنهاور الذي قاد الحلفاء الغربيين عبر ألمانيا، هو الرئيس الذي وقع طلب هذا القرض.. وبدا من الواضح أن شعوب المحور لم تدفن تحت الأنقاض، فالإنسان لا يمكن دفنه حياً على أي حال، وعندما اتجه الخبراء بأنظارهم إلى بقية دول العالم، اكتشفوا شيئاً مذهلاً.. فالمشاكل التي خلفتها الحرب لم تتفاقم بين المتحاربين بقدر ما تفاقمت في أراضي الشعوب النامية.. والدمار الذي لحق بالعالم لم يتركز في مكان آخر غير أراضي هذه الشعوب.. فالحرب لم تخسره ألمانيا أو اليابان بل خسرته الشعوب الجائعة الفقيرة في آسيا وإفريقيا، هاتين القارتين المزدحمتين بالرجال الجياع الأميين البسطاء، وبمشاكل العمل والاستعمار والفقر المتزايد..

وفيما يتمكن شعب ألمانيا من إعادة بناء بلاده في مدى ثلاث سنين فقط.. ويحتفل اليابانيون بتدشين غواصاتهم المصنوعة في اليابان، تظل معظم الشعوب النامية مواصلة طوافها المرهق وراء طلب المساعدات محاولة سد حاجتها من الطعام الضروري وحده.

وبدا الأمر كله مثل الألغاز السخيفة..

فقد كان من الواضح أن الشعوب النامية تعاني مرضاً أكثر قسوة من الحرب.. من نيران الدبابات، ومدافع القوقازيين الرشاشة.. مرض لا تستطيع أن تحدثه قنبلة ترومان البدائية ولا أساطيل الطائرات قاذفة اللهب.. شيء اسمه - الجهل - المطبق الذي يستطيع أن يخلق من ذهن إنسان بسيط، وكراً أسود مظلماً لا أمل في إصلاحه حتى في الجحيم..

وقد كان من الواضح أن الرجال الذين نهضوا فوق أنقاض

Twitter: @alqareah

الحرب، وأصروا على إعادة البناء كله مرة أخرى، لم يكونوا رجالاً من نوع خاص أو مخلوقات ذات مواهب لا يملكها الآخرون، بل كانوا مجرد بشر مثل سواهم، لا شيء لديهم سوى القدرة على رؤية الوجه الحقيقي للمشكلة.. والرغبة في الإصلاح مهما كان الثمن..

وذلك شيء لا يملكه الرجال الأميون في الدول النامية، إنهم لا يستطيعون تفهم الحوادث إلا بطريقة فردية، وبقدر ما يمكنهم من الرؤية خلال عالمهم المظلم، وفيما كان سائقو العربات العامة في ألمانيا يتطوعون للمساعدة في بناء ميونيخ بعد أن ينهوا نوبتهم في العمل، كان السائقون في البلدان النامية مستعدين لقتل أي إنسان يطلب منهم ذلك.

وفيما كان الألمان يستثمرون مساعدات أمريكا في بناء مصانعهم، كان الرجال الأميون في الدول النامية يجمعون تلك المساعدات في وسائدهم خلال عمليات السرقة المزرية ليشتروا بها سيارات ألمانيا المتينة البناء..

ولم يكن ثمة فرق بين هؤلاء الرجال سوى أن أحدهم قادر على رؤية المشكلة من جوانبها، فيما ظل الآخر ـ مثل أحد بغال العربات ـ لا يرى سوى جزء واحد من الطريق..

وهذه حقيقة المهزلة..

فلم ينزل الألمان أو اليابانيون من السماء، ولم تمطر السحب في بلادهم ذهباً.. بل أمطرت قنابل وقوقازيين، ولم يكن لديهم شيء واحد يميزهم عن الآخرين..

.. كانوا مجرد شعوب فقيرة بائسة تحاول النهوض من أنقاض هزيمتها المهينة.. وكانوا عرضة للانقراض أكثر من سواهم..

ولكنهم لم ينقرضوا.. فالإنسان غير قابل لهذا المصير ما دام

Twitter: @alqareah

قادراً على الرؤية الجيدة أما الذي يفقد عينيه، ويصبح رأسه مظلماً، فإنه وحده عرضة للخطر، وهو وحده ضحية الحفر التي لا قعر لها..

فالجاهل لا يمكن انقاذه قط.. إنه ـ مثل أحد السكارى ـ لا يمكن إقناعه بشيء، وليس ثمة فرصة لمنعه من ارتكاب ما يشاء إلا أن تكتفه بأحد الحبال أو تقتله أو تجعله يصحو..

فإذا تركته وشأنه، فأنت تتركه للصدفة وحدها.. ولكنك لن تستطيع أن تعتمد عليه أبداً..

والجهل مخدر دائم الأثر.. إنه لا ينتهي مثل باقي المخدرات عند حد تدمير صاحبه بل يمد أذرعته الشنيعة لكي يدمر كل شيء حوله.. في جميع الجهات..

فزوجة الرجل الجاهل تظل جاهلة مثله، وتظل أرضه مقفرة مليئة بالعجاج، فيما ينصب فوقها أعلامه ويقتل كل من يقترب منها، معترضاً طريق الإصلاح مثل صنم أخرق وعندما يحس بالمرض ينطلق باحثاً عن أحد الفقهاء لكي يكتب له حجاباً ويبيح له زيارة أحد الأولياء المختصين بالعلاج.. فإذا عادت إليه صحته يتزوج ابنة الفقي ويعطي الفقي ابنته واقفان معاً في غسق عالمهما البربري يتبادلان العجائز مثل الأنخاب المضحكة..

فالجهل لا يقف عند حد..

وهو ليس الأمية وحدها، فكثير من الأميين تنقذهم الصدفة، ولكن الجهل مرض من نوع آخر.. مرض يجعل الإنسان ـ أي إنسان ـ مخلوقاً أنانياً خالياً خلواً تاماً من أي إحساس بواجب التضحية والنظام تجاه الآخرين..

وذلك هو الجهل الذي لا شفاء منه..

Twitter: @alqareah

إنه المرض الذي يصيب أحد الناس ـ سواء كان يحسن القراءة أو لا يحسنها ـ ويجعله ـ مثل بغل مغطى العينين ـ لا يرى شيئاً سوى طريقه الخاص.. يجعله مثل أحد السكارى غير قادر على رؤية الحقيقة التي تقع خارج رأسه المصاب بالدوار أبداً..

والمشكلة أن الإنسان الجاهل لا يمكن اعتباره مذنباً..

فهو لم يرتكب إثماً يعرف أنه إثم ولم يفعل شيئاً قط باعتبار أنه خطأ.. فكل مقاييسه عاجزة عن إدراك الأصل، وهو يبذل جهده للقيام بتأدية واجبه بقدر ما يعرف.. وليس من العدل إلقاء اللوم عليه.. فالمرء لا يستطيع أن يخرج من جلده إلا إذا أتيحت له فرصة المقارنة والفهم.

وهذا ما تحتاجه الشعوب النامية..

إنها لن تكون قادرة على النهوض المجدي إلا إذا تعلمت الطريق إلى اكتساب المعرفة المجدية.. المعرفة التي تستطيع أن تأخذ بيد الإنسان عبر السبل المتفرعة لكي يتخلى عن أنانيته وأهدافه الصغيرة وتفاهاته ويمضي في اتجاه الآخرين ليقدم لهم ما يقدر عليه..

إذ ذلك هو الطريق الوحيد لكسب الحرب الحقيقية.. ولإنقاذ بغال العربات المزرية من جحيم أنانيتهم. وفتح الوسائد المتسخة ببقع الزيت لكي تبني كل ألمانيا أخرى مصانعها..

فالإنسان لا يعيش في ألمانيا وحدها ولم تنجب أمهات الآخرين بغالاً عمياء ولكن الظروف المريبة فعلت ذلك، ولا بد أن تغير هذه الظروف الآن، إذا أرادت تلك البلدان أن لا تظل ـ نامية ـ إلى الأبد.. فقد سرقها الوقت وهي تحلم بالمطر..

ويا رب.. دع سماءك تمطر كتباً..

Twitter: @alqareah

دعها تمطر مدارساً جيدة ومعلمين وكتباً وسوف نصنع نحن المطر..

ونغسل عارنا.

14 أغسطس 1966

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

العيد من الداخل

﴿ويقولون هو من عند الله، وما هو من عند الله﴾
«قرآن كريم»

القول الشائع بأن الله يطلق سراح الشيطان في يوم العيد لا يبدو ـ في الواقع ـ مجرد رمز لغوي محض، أعني ليس في بلدنا على الأقل، فالمرء هنا ـ داخل هذه التكية المزدحمة بالخطباء والدراويش ـ لا يستطيع أن يغالب الشعور بأن شيئاً ما يشبه الشيطان من جميع الوجوه يخرج حقاً في يوم العيد مخفياً ذيله تحت جرده الحرير لكي يضحك على ذقوننا حتى تدمع عيناه.

أنا أعرف أن ذلك المخلوق ليس مجرد أسطورة.. وأعرف أيضاً أنه يعيش بيننا مطلق السراح طوال أيام العام، لأن الله لا يدنس سمواته النقية بحبسه فيها لحظة واحدة، ولكننا نراه بوضوح أكثر في يوم العيد بالذات ونتورط في الاعتقاد بأنه خرج لتوه من سجنه السماوي، متناسين بالطبع ـ على عادة الشعوب الحسنة النية ـ أن السماء نفسها مقامة في داخلنا.

فماذا أردت أن أقول لكم؟

أجل! ليس ثمة سماء فوق رؤوسنا. ليس ثمة شيطان، ليس ثمة شيء في هذا العالم المسطح سوى الله والإنسان ولو ذهب فقي

Twitter: @alqareah

حارتنا العجوز لكي يبحر في الفضاء إلى الأبد، فإنه لن يجد شيئاً يضيفه إلى هذه القائمة سوى علب القمامة النتنة التي تركها رواد الفضاء على سطح القمر.

هذا وجه الحق.. ولكن المرء لا يجوز أن يحرم فقينا من شيطانه الطيب القلب لمجرد الرغبة في إظهار الحق.

إنه بوسعه أن يحتفظ به في تكيته إلى يوم القيامة، وبوسعه أن يطلعه لنا يوم العيد لكي يبتز راتبه من وزارة الأوقاف، فالأمر كله مجرد حرفة لكسب العيش، والفقي البسيط التركيب لا يحتاج بالطبع إلى أن يموت بالجوع مثل الحاوي الذي ماتت قردته.

لا.. ليس ثمة من يريد أن يذهب إلى هذا الحد، ولكن الفقي أيضاً مطالب بأن يلتزم حدود القانون، ويكف عن خداعنا، فالقول بأن الشيطان مخلوق سري يتسلل تحت جنح الليل لكي يغري المواطنين بارتكاب المعاصي، قول مريب يهدف إلى مساعدة المجرم الحقيقي على الهرب. لأن الشيطان ـ في الواقع ـ لا يتسلل تحت جنح الليل، ولا يعمل بطريقة سرية أيضاً. إنه ينبت في بلدنا مثل نبات الحلفا نفسه، ويتحدث مع مواطنينا في وضح النهار على أرصفة الشوارع، ومن الإذاعة الليبية والجرائد المزرية، وأحياناً أيضاً من منبر الجامع.

فماذا أردت أن أقول لكم؟.

أجل! الشيطان الطيب القلب مجرد مواطن ليبي.

يلبس كاطه المحروقي يوم العيد، ويشعل سيجارته الغريان، ويخرج للنزهة على شاطىء البحر لكي يتحدث مع مواطنينا بلكنته الليبية التي لا يخطئها السمع، وليس ثمة ما يميزه عن أحد منا سوى أنه «دائماً ـ ومن هنا إلى الأبد ـ مخلوق جاهل».

Twitter: @alqareah

وأنا أعرف أنني أستطيع أن أفقد فروة رأسي مقابل هذه الإهانة لمقام الشيطان، ولكنني ـ في الواقع ـ مضطر لقبول المغامرة رغم أنفي.. فالمخلوق الغريب الذي يتحدث عنه فقي حارتنا العجوز، ويزعم أنه يملك ذيلاً مغطى بالشعر ويضع قرنين فوق رأسه لا علاقة له بالشيطان، إنه مجرد قردة مدربة يسرح بها الفقهاء في الشوارع لابتزاز نقود المارة، أما الشيطان الحقيقي فإنه يجلس في «صدور الناس».

فماذا أردت أن أقول لكم؟

أجل! الشيطان هو جهلنا.. هذه هي الحقيقة المسطحة التي يطلق الله سراحها في يوم العيد، فنحن لا نجلس في الجامع ونرفع أيدينا إلى «السماء» عبثاً، إننا نفعل ذلك لأننا نعتقد أن الله ليس في «الأرض»، ولأن الرب العبراني وشيطانه المضحك، الذي يحمل ذيله فوق رأسه قد تسربا إلى صدورنا عبر مرحلة مميتة حافلة بالميثولوجيا والفقهاء.

أنا لا أتمنى أن أثير غضبكم بهذا القول، فالواقع أن ذلك لن يغسلكم من خرافاتكم بمقدار عقلة أصبع، ولن يجعل حقائق الحياة في بلدنا تبدو أقل قبحاً. إننا لا بد أن نتعلم النظر إلى أنفسنا بأمانة.

فالفقي الذي يضع عمامة فوق رأسه، ويلبس جبته الحريرية لكي نعرف أنه فقي ونقبل يده من باب التأدب، لم يجد هذا الزي في القرآن، ولم يطلب منه الله أن يميز نفسه عن بقية المواطنين، ولكنه تعلم هذه الحيلة من تاريخ الكهنوت السيىء السمعة، فرجال الدين في مصر الفرعونية كانوا يلبسون زياً خاصاً لكي يتعرف عليهم المواطن ويمنحهم ما لديه من البيض وصغار الماعز، وأحبار المعبد اليهودي كانوا يلبسون زياً خاصاً لكي يتعرف عليهم اليهودي

Twitter: @alqareah

الورع ويسارع بتقبيل أيديهم عندما يجدهم يطاردون امرأته من باب المحبة في الله، وقسس الكنيسة المسيحية كانوا يلبسون زياً خاصاً لكي يميزهم جباة الضرائب عن بقية الرعاع، وفقهاء المسلمين يلبسون زياً خاصاً من أجل ذلك كله مرة واحدة.

فهل أثرت غضبكم؟

حسناً.. إن الفقي المسلم الذي يجلس للوعظ والإرشاد مقابل راتبه من وزارة الأوقاف، لم يجد ذلك في القرآن أيضاً، ولم يطلب منه الله أن يترك بقية الحرف ويتطوع بفرض وصايته على الدين، ولكنه تعلم هذه الحيلة من تاريخ المعبد العبري.. فالأحبار وحدهم هم الذين ابتدعوا حرفة الدين خلال القرن الأول من وصول بني إسرائيل إلى أرض الميعاد، وأقاموا مؤسسة دينية خاصة تشرف على شؤونهم وتدفع لهم مرتباتهم من حصيلة الصدقات حتى تحولت الديانة اليهودية نفسها إلى «شركة مساهمة» تدعى باسم «المعبد» تلك الشركة السيئة السمعة التي لم تقتصر على تحريف التوراة فحسب بل انطلقت لزيادة نفوذ الأحبار داخل جهاز الدولة حتى وضعت الملك نفسه في خدمة أهدافها وأرغمته على أن يتقاسم معها شعب الله المختار كما يتقاسم اللصان قطيعاً من البقر.

وقد عادت هذه المؤسسة للظهور في التاريخ المسيحي أيضاً، ودعت نفسها «الكنيسة» ووضعت فوق رأسها مدير الأعمال المدعو باسم «البابا»، الذي لم يفقد دقيقة واحدة لكي يمد نفوذه داخل أجهزة الحكم في الدول المسيحية ويرغم ملوكها جميعاً على أن يتقاسموا معه قطعان العباد الأتقياء كما يتقاسم قطاع الطرق حصيلة أية غارة ناجحة.

هذه الشركات الدينية هي التي تشرف الآن على دفع رواتب

Twitter: @alqareah

القسس والأحبار، وهي التي جعلت الدين حرفة مربحة، وتسببت أيضاً في حركات الانفصال الديني والحروب السوداء والقهر العقلي وكبت الحريات وبيع صكوك الغفران وإخضاع كلمات الله لأهواء الملوك المضحكين وحرق المواطنين بتهمة السحر. والفقي المسلم الذي يتخذ الوعظ حرفة لكسب العيش لا يختلف عن أي قسيس في هذه الشركات الدينية بمقدار عقلة أصبعه.

فهل أثرت غضبكم؟

حسناً.. إن الفقي المسلم الذي يرفع يديه على المنبر المقام في بيت الله لكي يدعو لسيده بطول العمر والبقاء، لم يجد ذلك في القرآن، ولم يطلب منه الله أن يجعل شعائر الصلاة الخاشعة بمثابة إعلان مجاني للدعاية السياسية، ولكنه تعلم ذلك من التاريخ الكهنوتي السيىء السمعة، فرجال الدين في مصر القديمة كانوا يقيمون «الصلاة» كلها باسم الملك لأنه هو الرب نفسه، أما أحبار المعبد اليهودي الذين فقدوا لعبتهم الوثنية بتدخل التوراة فقد نقلوا اسم الملك من بداية الصلاة ووضعوه في النهاية لكي يطلبوا له المغفرة من الله ويدعون له بطول العمر. تلك اللعبة المشينة ذات التاريخ الحافل بالخدع التي عادت إلى الظهور في القرن الخامس الميلادي عندما بدأ الأمبراطور الروماني يستمد سلطته من الكنيسة ويدفع الرشاوى للقس لكي يدعو له أمام المواطنين بطول العمر والبقاء.

ثم استعار الملوك المسلمون هذه الخدعة وانطلقوا بدورهم عبر النفق الأسود لكي يجعلوا الفقي المسلم مجرد بوق سياسي أجوف في حرم بيوت الله، وبقية اللعبة بالطبع أن الفقي المتواضع الإمكانيات ركب هذه البغلة العوراء وانطلق يصرخ بالدعاء لسيده

Twitter: @alqareah

المضحك ويلحقه بالدوحة الشريفة حتى فاجأه «هولاكو» في وسط الخطبة وذبح له سيده مثل عنزة جرباء.

فهل أثرت غضبكم؟

حسناً.. إن الفقي المسلم الذي يجلس في محراب الجامع لكي يبني «مملكة» سماوية أمام مواطنيه ويضع لهم الله فوق العرش ويحيطه بالملائكة ثم يضع تحته الأنبياء، ويترك الأولياء الصالحين يجلسون درجة أخرى إلى أسفل. فيما يحتل «المقربون» الدور التالي ويجلس «الأتباع» في الدور الذي يليه، هذا المهندس المضحك لم يتعلم فنه من القرآن، ولم يقل له الله أن عرشه يشبه عرش الملك. وأن الملائكة مخلوقات مجنحة قائمة بذاتها في سلم الخلق، ولكنه تعلم هذه الحكمة من الميثولوجيا الدينية السيئة السمعة، فالناس الوثنيون الذين عاشوا في مزبلة الفكر كانوا يتصورون «الرب» بمثابة ملك عظيم خارق القوة يسكن في السماء، ويحيط نفسه «بالجنود» المسلحين بالسيوف السماوية لكي «يرسلهم» وقت الحاجة لقضاء مآربه، والقرآن المذهل الأبعاد الذي قال بوضوح ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾ وضع جميع اللعب الميتافيزيقية على الرف، مرة واحدة وإلى الأبد، ولكن الفقي المسلم لا يستمد تصوراته من القرآن وحده، ولا يلجأ إلى تفسير كلمة «الملائكة» تفسيراً يليق بالتجريد الإلهي في الإسلام، بل يتبنى وجهة النظر المسيحية المريبة السمعة التي تتصور حقاً أن الملائكة أجسام نورانية يستعملها الرب بمثابة سعاة مكتبه.

فهل أثرت غضبكم؟

حسناً.. إن بقية اللعبة أكثر مدعاة لليأس، ولكنني هنا لا أنوي أن أقوم بتغطيتها داخل حديث واحد.. إن الأمر يتطلب مليون

Twitter: @alqareah

حديث آخر.. وإذا كنا سنصل إلى نتيجة ما بعد ذلك كله، فهي أن نكتشف أننا ما زلنا في حاجة إلى مزيد من الأحاديث.

فالدين هو الفكر المتناهي الأبعاد الذي يتابع تفاصيل العالم بأسرها.

والدين هو المعرفة الحقيقية بالتجريد الإلهي في أنقى صورة ممكنة داخل امكانيات العقل البشري. والمرء لا يستطيع أن يتصور ثمة نهاية لهذا الطريق المذهل الطول خصوصاً عندما يعرف أن اللغة نفسها ـ التي تستعمل لأداء مهمة النقاش ـ هي في الواقع أول حاجز مادي يحجبنا عن منطقة التجريد الإلهي.

فكلمة «الله» نفسها إذا لم تنل حقها من التجريد اللغوي، تصبح في الواقع اسماً محدداً يقف في منطقة ما خارج العالم، وتحجب أبصارنا عن مواصلة الصعود.

فهل ثمة طريق إلى الخارج؟

أنا أقول هنا انقذوا فقي حارتنا العجوز من نفسه..

امنحوه فرصة العمل الواسع النطاق الذي يمتد على طول مسرح الفكر الإنساني، واتركوه يبحث لنا عن سبيل الرشاد. فهذا الرجل الغارق في الخرافات لا يستطيع قط أن يفهم القرآن بمعارفه المحنطة من القرون الوسطى، ولكنه إذا أتيحت له فرصة لفهمه فإنه وحده يستطيع أن يجد لنا الطريق.

أعطوه فرصة العمل بوسائل الفكر الشجاع، كما أعطيتموه السيارة الحديثة بدل ناقته القديمة. ولا تتركوا أحداً يسخره لخدمة الدعاية السياسية، وإلحاق الموظفين بالدوحة الشريفة، والدعاء على المنابر لمن يدفع راتبه في وزارة الأوقاف.

Twitter: @alqareah

فالدين وحده هو طريقنا إلى الخارج، وطريق الإنسان في العصر بأسره.

الدين، وليس كسب العيش باسم الدين، أو التسكع بالعمامة وجبة الحرير، وكتابة المقالات المريضة بأقلام المرتزقة الصغار الذين يقفون على الأرصفة لبيع قرودهم الملونة برخص التراب.

فهل أثرت غضبك؟..

حسناً.. أنا هنا في هذه المدينة البعيدة لست في حاجة إلى غضب أحد، ولست في حاجة أيضاً إلى من يشرع قلمه لكي يقذفني في الجحيم ملوثاً بالحبر الأحمر.. إن ذلك كله أمر لا داعي له، فأنا لست ملحداً ولا أعمل لحساب المستشرقين الذين لا يجدون ثمة ما يفعلونه سوى أن يشوهوا ديننا الحنيف بطريق الخداع.

إنني أكتب ما أؤمن به.

وقد تعلمت أن أؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر، وتعلمت أن أطوي هذا الإيمان في صدري وأتركه يقودني في طريق الغربة. وقد قادني بنفسه إلى هذا الحد، وعلمني أن أكفر بمهنة الفقي، فإذا جاء العيد، وانطلقت دعواتكم المضحكة عبر كل السموات فأنا أراكم من الداخل وأكفر بكم.

10 ديسمبر 1969

Twitter: @alqareah

الجوع

امبراطور إيران يحتفل بالذكرى الخمسمائة بعد الألفين لميلاد عرشه. امبراطور إيران مشغول جداً بالإعداد للحفلة حتى أنه ـ كما قيل في نشرة رسمية صادرة من الديوان الملكي ـ لم يعد يملك وقتاً كافياً لامتطاء حصانه المفضل. كل مواطن في مملكة الشاه مشغول بالحفلة أيضاً. الأغنياء يفصلون البدل الجديدة وفساتين السهرة والفقراء يغسلون ثيابهم القديمة بمسحوق التايد لكي تبدو أقل سواداً ويرشون لحاهم بالفليت، المواطن الذي لا يبدو نظيفاً ومبسوطاً في يوم الحفلة يجلده الشاه خمسين جلدة ويطوف به الأسواق على حمار أعور. هذا يحدث داخل مملكة الشاه وهو بالطبع أمر مفهوم.

أعني مفهوم أن يحتفل ملك مستبد بذكرى عرشه المستبد حتى ينسى حصانه المفضل في غمرة فرحته بالمناسبة. مفهوم أيضاً أن يضطر المواطنون داخل أسوار المملكة إلى إحناء رؤوسهم أمام إرهاب الشرطة ويشاركوا في الحفلة بثوب نظيف ولحية خالية من القمل، لكن الذي ليس مفهوماً حقاً ـ بل غامضاً وملتوياً إلى حد الموت ـ هو أن يضطر رجل آخر في مأمن من شرطة الشاه أن

Twitter: @alqareah

يغسل قميصه وينظف لحيته ويسافر طائعاً إلى طهران لكي لا تفوته فرصة الاحتفال بالذكرى المروعة. إن جميع الملوك والرؤساء في عالمنا.. جميع الرجال الكبار تقريباً الذين يقودون عالمنا من أنفه قادهم الشاه من أنوفهم إلى طهران دون معونة من عساكره. وأنا أدعوك أن تحك رأسك وتحل لنا هذا اللغز أو تقبل وجهة نظري مهما بدت خيالية بالنسبة للواقع.

فأنا أعتقد أن ملوك العالم ورؤساءه «جيعانين» في بلادهم وأنهم حضروا حفلة الشاه لمجرد أن يملأوا بطونهم بالطعام. هذا سبب قد يبدو غير منطقي جداً بالنسبة لك لكنك ستحك رأسك حتى تصاب بالصلع دون أن تجد سبباً آخر أكثر منطقاً. إنني أريد أن أعرض المشكلة أمامك بالتفصيل. فدعنا ننظر إلى قائمة الضيوف..

على رأس القائمة يأتي الرئيس هاينمان. عجوز في السبعين من عمره. مهنته أحسن موظف في اتحاد ألمانيا الفيدرالي. شهرته أنه عاش مكافحاً ضد هتلر وضد جميع الأنظمة الدكتاتورية وأنه خرج في مظاهرة ضد الشاه خلال زيارته الأخيرة لألمانيا.

اللافتة التي حملها هاينمان في المظاهرة كانت تقول بالحرف الواحد: «ليسقط الشاه.. اخرج من بلادنا أيها الدكتاتور». الخبر الذي أذاعه مكتب هاينمان منذ يومين يقول بالحرف الواحد أيضاً: «الرئيس يشارك في احتفالات صاحب الجلالة امبراطور إيران. الرئيس سيحضر الحفلة الرسمية ويصفق أيضاً».. أنت تحك رأسك بحثاً عن أسباب خيالية.. أنا لا أحك رأسي بل أقول لك أنه ليس ثمة سبب واقعي واحد لموقف الرئيس هاينمان المفاجىء سوى أن العجوز «جيعان» ويريد أن يشبع ذات مرة. لا تتعب نفسك في الفلسفة.

Twitter: @alqareah

إن الشاه لم يرسل شرطياً لكي يحضر له رئيس ألمانيا. ليس بوسعه أن يفعل ذلك أيضاً. ليس بوسعه أن يجرب عضلاته ضد ألمانيا كما يجربها ضد مواطنيه العزل. الشاه بجانب هاينمان مجرد قزم لا حول له ولا قوة ولم يكن بوسعه أن يحضره لكي يشاركه الاحتفال بذكرى عرشه البربري لولا أن العجوز البائس في حاجة مميتة إلى صحن من الطعام.

على رأس القائمة يأتي كوسيجين. عجوز آخر صعب المراس. شيوعي أحمر مثل الدم يكره الملوك وبالذات الملوك المستبدين ويعتبرهم «أسوأ مظاهر الإقطاع وأكثرها ضرراً بمصالح الشعوب»، يملك في حوزته ألف صاروخ للقضاء على الإمبريالية. يغسل قميصه ويرش لحيته بالعطر لكي يشارك الامبراطور فرحته بعرشه الامبريالي ويدعو له بطول البقاء. هل تريد أن تزعم لي أن الشاه المضحك قد أرسل شرطياً لإحضار كوسيجين رغم أنفه إلى إيران؟

هل تعتقد أن ألف صاروخ ذري عاجزة عن حماية كوسيجين من سوط الشاه وحماره الأعور؟ هل تريد أن تصيبنا جميعاً بالصلع أم تفضل أن نلتزم الواقع ونفترض ببساطة أن اليكسي كوسيجين رئيس الوزراء في الاتحاد السوفياتي «جيعان» هذه الأيام ويزمع أن يملأ بطنه مجاناً من مخزن رجل امبريالي.

راديو موسكو ما يزال ـ كالعادة ـ يخطب ضد الامبريالية. صحف موسكو ما تزال ـ كالعادة ـ تكتب أشعاراً ملتهبة ضد الإقطاع والملوك. كل شيء في داخل الاتحاد السوفياتي ما يزال على ما يرام وليس مما يضر الشيوعية أن يملأ رئيس الوزراء بطنه ذات مرة بطعام حقيقي..

على رأس القائمة يأتي نيكسون. رجل يقطر حكمة وديمقراطية.

Twitter: @alqareah

خطيب من أعظم خطباء هذا العصر المليء بالخطباء.. قلعة محصنة لحماية حقوق الإنسان والدفاع عنها بصواريخ بولاريس والقنابل الهيدروجينية. نيكسون سيلبس بدلة زرقاء في حفلة الأمبراطور ـ كما أعلن في نشرة رسمية صادرة من البيت الأبيض ـ وسوف يلبس أيضاً قفازاً من الخشب لكي يعلو تصفيقه على بقية المدعوين. هل تعتقد أن نيكسون أيضاً خائف من سوط الشاه؟.

أنا أقول إنه ليس خائفاً منه أو من مليون مثله. أقول أيضاً أنه لا يحب الملوك المستبدين وإنه أعلن ذلك دائماً في خطبه شبه اليومية بل أنه تمادى ذات مرة في إعلان كرهه للعروش الوراثية حتى أنه صاح أمام الشعب الأمريكي «بأن قنابلنا وغواصاتنا ليست موضوعة في خدمة أحد سوى الإنسان وحده وإننا سنمضي إلى آخر العالم للدفاع عن هذا الإنسان» حتى أن شاه إيران ـ كما قيل في الأنباء ـ أصيب إذ ذاك بمغص من فرط الخوف وهجره النوم وقضى ليلة كاملة في النافذة منتظراً غواصات الرئيس نيكسون، لكن الرئيس جاء في نهاية المطاف بدون غواصة واحدة.

جاء ليأكل، أنا أقسم لك. جاء لكي يملأ بطنه بالطعام، فالجوع كافر والمرء لا يحتاج إلى أن يلتزم في سلوكه بما يفلت أحياناً من لسانه ثم إن جميع الناس ـ بما في ذلك الرئيس نيكسون ـ مضطرون للحصول على بعض الطعام لكي يواصلوا إلقاء الخطب.

على رأس القائمة يأتي الرئيس كيكونن. عجوز مجرب آخر من جمهورية فنلندا. عجوز يساوي وزنه ذهباً كما يقول عنه مواطنوه عندما يشربون أكثر مما ينبغي. رجل يعرف الشاه أكثر من سواه لأنه زاره في هلسنكي وقضى في صحبته المحزنة ستة أيام بلياليها ورأى بعيني رأسه شعب فنلندا وهو يتظاهر تحت الثلوج ضد الشاه ويرميه

Twitter: @alqareah

بالطماطم والبيض الفاسد ويطالبه بالخروج من البلد. الآن سيذهب الرئيس كيكونن لمشاركة الشاه فرحته بعرشه البربري في بلده البربرية.

الآن تحك أنت رأسك أكثر وتضطرني أن أهمس لك بالسر الذي أعرفه بحكم حياتي في بلد الرئيس كيكونن.. إنه جيعان. العجوز الذهبي جيعان، والجوع كافر خاصة إذا كان المرء يعيش على حافة القطب.

ثم يأتي على رأس القائمة كل الملوك والرؤساء، كل الناس الكبار. كل الأسماء اللامعة في عالمنا اللامع ما عدا بضعة رجال يعدون على أصابع اليد الواحدة. ورغم أنني لا أستطيع أن أحصر أمامك أسماء المدعوين الكبار نظراً لضيق المجال وضيق الصدر إلا أنني أستطيع أن أحصر لك الأسباب الحقيقية التي دفعتهم جميعاً إلى المشاركة في الحفلة البربرية. إن أحداً منهم لم يحضر إلى طهران إلا لكي يملأ بطنه ذات مرة.

فليس ثمة رجل بين هؤلاء المدعوين يحب الشاه.

ليس ثمة أحد منهم يحس تجاهه بذرة واحدة من الاحترام أو يتمنى أن يكون مثله أو يرضى بأن ينقل بنظامه البربري إلى بلده. ليس ثمة مدعو واحد سعيداً بحضور الحفلة.

كل واحد منهم يحس بالضيق. كل واحد منهم مضطر لتمثيل دوره السخيف رغم أنفه. كل واحد منهم ينظر حوله ويرى جموع المواطنين الجياع والمرضى والشحاذين والبؤس واليأس ويرى المجرم المقزز يرفل في الحرير وأضواء النجف ويعقره الحزن في داخله حتى يغمض عينيه. كل واحد منهم سيلوك طعامه الذي يقدمه له الشاه

Twitter: @alqareah

مغمض العينين وسوف يقف الطعام في حلقه مثل الحسك ويحرق أمعاءه بالسم.

لأنه عرق الفقراء، لأن الشاه سرقه من دم الأطفال وصانعات السجاجيد والحمالين ولأن كل مدعو على مائدة الشاه يعرف هذه الجريمة بالتفصيل. إن رجال العالم الكبار قد «دعاهم» الشعب الإيراني لكي يأكلوا خبز أطفاله وقد جاءوا جميعاً وفتحوا أفواههم وملأوا بطونهم النهمة وشكروا الشاه على عطفه ونسوا أن يشكروا الأطفال. هذا ما سيكتبه الجيل القادم عن حفلة الامبراطور. وعن عالمنا ورجاله الكبار، لكن المرء لا يحتاج إلى أن يحس بالخجل من انتمائه إلى هؤلاء الرجال لأنهم في الواقع لا ينتمون إلى جنسنا الإنساني. إنهم جميعاً رجال كبار فقط لكنهم ليسوا من جنس الإنسان وليسوا شيئاً سوى قطيع من البغال الجائعة التي تمشي ـ بالصدفة ـ على قدمين. إن الإنسان لم يحضر حفلة الشاه بل وقف وراء الأسوار وقال للشاه ولمدعويه الجياع كلوا خبز هذا الشعب الجائع. كلوا بالسم ودغدغوا الامبراطور في بطنه لكي يضحك في عيد ميلاده الخمسمائة بعد الألفين.

كلوا يا بغال عصرنا الكبار.

16 أكتوبر 1971

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

تحية طيبة وبعد

الصادق النيهوم

حسناً . . أنا هنا في هذه المدينة البعيدة لست في حاجة إلى غضب أحد . ولست في حاجة أيضاً إلى من يشرع قلمه لكي يقذفني في الجحيم ملوثاً بالحبر الأحمر . . إن ذلك كله أمر لا داعي له فأنا لست ملحداً ولا أعمل لحساب المستشرقين الذين لا يجدون ثمة ما يفعلونه سوى أن يشوهوا ديننا الحنيف بطريق الخداع .

وقد تعلمت أن أؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر . وتعلمت أن أطوي هذا الإيمان في صدري وأتركه يقودوني في طريق الغربة . وقد قادني بنفسه إلى هذا الحد . وعلمني أن أكفر بمهنة «الفقي» . فإذا جاء العيد ، وانطلقت دعواتكم المضحكة عبر كل السموات فأنا اراكم من الداخل وأكفر بكم .

الصادق النيهوم
١٠ ديسمبر ١٩٩٦

@ketab_n

مؤسسة الانتشار العربي
Arab Diffusion Company

التوزيع الحصري خارج الجماهيرية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى
ص.ب. 113/5752 ر.ب. 2070 1103 ـ بيروت ـ لبنان
Email: arabdiffusion@hotmail.com